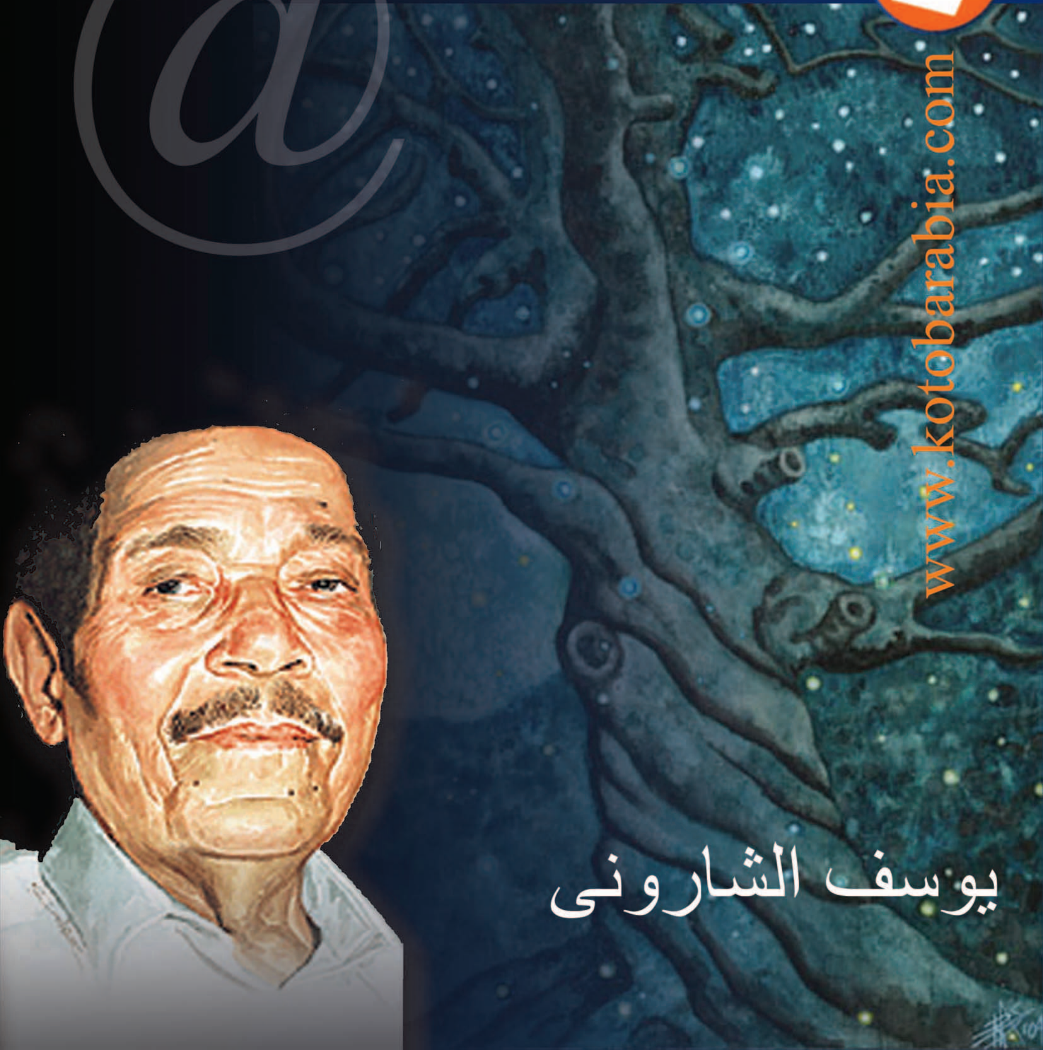
نثر غنائى

المساء الأخير



يوسف الشارونى

المساء الأخير

يوسف الشاروني

"أعدك أني سأظل سائرا إلى الأمام، إلى فوق دائما، إلى الأعماق دائما، ولن تعرف نفسي الموت، بل دائما سأقدم لك وجها يضيء بالنور والدموع".

كلمه الطبعة الثانية

نشر " المساء الأخير" أول ما نشر على فترات بمجلة الأديب البيروتية من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٢، لكنه كان قد كتب دفقة وجدانية واحدة عام ١٩٤٥، أي منذ حوالي نصف قرن.

ولم أكن أحس أنه غريب فقط عن كتاباتي، بل وعن كتابات ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث طغى تيار الواقعية، إلى أن تحينت الفرصة بعد حوالي عشرين عاما لأجمع أشلاءه في كتاب عام ١٩٦٣.

وهاهو ذا يبعث مرة ثانية بعد حوالي ثلاثين عاما من طبعته الأولى ونصف قرن من إبداعه، لعله يكون واحة أو لحنا عذبا وسط حياتنا المعاصرة المزدحمة بالصخب والضجيج.

يوليو ١٩٩٤.

كلمة الطبعة الأولى

كنت كلما هممت بجمع " مسائي الأخير" بين دفتي كتاب ترددت وتهيبت، فقد كنت أشهد كيف يطغى علينا تيار الواقعية - مؤلفين وقراء - ويكتسح ما عداه، فانزوى - فيما انزوى - مسائي الأخير.

ثم أقبل الدكتور ثروت عكاشة على ترجمة جبران، ليبعثه أمام جيل جديد من قراء العربية، وكان قد كاد أن يصبح مجرد علامة في تاريخ أدبنا العربي، وما لبث أن ظهرت في سوقنا العربية أخوات لمؤلفات جبران.

وهكذا أضيء الطريق من جديد إلى حيث الاحتفاء بنقاوة اللفظ، وصفاء التعبير، ورهافة المعنى وشفافية الأسلوب.

عندئذ وجدت أن " مسائي الأخير" قد آب من غربته، وعثر على صحبته، وآن لأشلائه المبعثرة - كأشلاء أوزيريس - أن تجمع في كتيب فيبعث من جديد.

أول يونيه ١٩٦٣

المساء الأخير

"المساء الأخير".. نعم المساء الأخير.. ينبغي أن ينتهي كل شيء.. لقد لعبت كطفل صغير حول شيء لم أرتب به.. لعبت في الحلم حول فخاخ القدر.. من ذا الذي أيقظني دفعة واحدة؟ سأهرب وأنا أصيح فرحا وألما كضرير يفر من حريق في بيته، سأقول لها إني عازم على الهرب.. تقدم الليل ولم تأت. أجدى علي أن أذهب دون أن أراها.. ينبغي أن أنظر إليها جيدا هذه المرة.. توجد أشياء لم أعد أذكرها.. طغى عليها النسيان.. يخيل إلي في بعض الأوقات أني لم أرها منذ مائة عام ولم أملأ عيني بنظراتها! كيف أستطيع الذهاب دون أن أراها؟ وكل هذه الذكريات.. مثلها كمثل قليل من الماء أحمله في سقاء من قماش رقيق شفاف.. ينبغي أن أراها للمرة الأخيرة، وأنفذ ببصري إلى أعماق قلبها: ينبغي أن أقول لها كل ما لم أقله".

من قصة بلياس ومليزاند-لموريس ماترلنك

الإهـ ـ ـداء

حين رأيتني أغني أقبلت في هدوء عند قدمي تجلسين، ثم رفعت إلي ابتسامة عميقة ورحت تنصتين، أما أنا فظللت أتطلع إلى الطريق مغنيا للسائرين.

بعضهم وقف لحظة ثم مضى، وبعضهم ظل يسير، وبعضهم لم يسمع الأنغام، بل أخذ يضج ويصيح، أما أنت فكنت إلى جانبي جالسة تنصتين.

وحين تعبت، وجدت أن أحدا لم يعطني أجرا طوال النهار، فهممت أن أوقف إنشادي وأنضم للسائرين، حين رأيتك إلى جانبي متطلعة تبتسمين.. وهمست عيناك:

غن لهم فهم متغربون منهكون وأنا في ظلالك أستريح، ولحنا لم تطلبي لك. فقط أن أستمر في غنائك للمتغربين، فانحدرت مني دمعتان، واندفعت أغني في حماس للعابرين.

القسم الأول

- ١ -

أيها الشاعر قم خذ نايك،

ولتذهب إلى شط المحيط اللانهائي،

قف لحظة، الق نظرة، تجمع فيها الكون كله.

ثم اجلس على الشاطئ الجميل، واعزف لحنا من ألحان مسرتك.

انتظر ذلك الزورق المتهادي على سطح المياه حتى يدنو منك.

وإذ يرسو أمامك فلتقف.. ولتلق بالناي الأصغر، لأنك ستجد الناي الأكبر ينتظرك في الزورق.

اعزف عليه هذه المرة، لا كما عزفت على نايك الأول.

اعزف عليه في حماس، بقلبك، بعواطفك، لا بفمك وهواء أنفاسك.

واعزف عليه حتى يأتي الناس من كل حدب ليسمعوا ألحانك معجبين.

وأنا كنت نايا وكنت عازفا في آن واحد.

وأنا كنت زورقا يجمع العازف والناي.

وأنا كنت الغدير الهادئ الذي انقلب محيطا متلاطما.

وفى البدء كنت الناس الذين يأتون ليسمعوا معجبين دون أن يفهموا.

وفي لحظات أكون أنا الكون كله: بمحيطه وزورقه ونايه، برمله وناسه.

- ٢ -

هذا الحب.. لم يكن وليد الصدفة يا حبيبتي، فالوجود كله عمل على أن يلتقي قلبانا، لنشعر بنشوة هذه الحتمية التي غمرتنا في فيض من جلالها.

أما الأزل فقد مهد لنا أن نلتقي: حوى هذه الملايين من السنين كي ينشأ الخلق، وهذه الآلاف من الأجيال كي تنتهي بنا، وفى اللحظة الخالدة المقدرة التقينا يا عزيزتي، وكان الزمان حين التقى الأزل بالأبد حولنا.

أما المكان فقد كون السماء والأرض من أجلنا.. المياه المترقرقة تحتنا، والنجوم المتألقة فوقنا، والزروع الممتدة أمامنا، وتلك العصافير.. كلها يا حبيبتي من أجلنا.

كل شيء لنا.. حتى هذا الضفدع الصغير الذي يقفز أمامنا، وذاك الأفق حيث الزمان والمكان، يلتقيان ولا يلتقيان، هذا الامتداد اللامحدود أمام أبصارنا وفي قلوبنا.

كل شيء يا حبيبتي.. من أجل أن نلتقي.

- ٣ -

كنت أحلم ذات ربيع، حين تسلل الحب إلى قلبي كما يتسلل النوم إلى أجفاني كل مساء..

وعندما لمحت الشمس تخطر في غلالة من ضباب، همست في شعاعها: أنا أعرف لماذا أنت اليوم فياض بالدفء نابض بالنور، ستفتح لك نافذتها وهي جالسة في مخدعها تغزل خيطها الطويل الطويل، ثم تغني لك أغنيتها عن الحلم والربيع، وعندما تشرد مع أحلامها ستغيب الأغنية تاركة لك أصداءها.

وعندما لمحت الظلال تتراكم كي تذهب في إغفاءة، قلت لصمتها: أنا أعرف لماذا أنت اليوم تحلم في فرح عميق، ستحضنها وهي جالسة توقد النار، ثم تتبعها حين تجز أغنامها البيض وهي تعطيك في ابتسامة خافتة خلجة من

خلجاتها. فإذا ما أقبل الليل ستنتشر في الظلام كي تنعم بأحلامها في المساء.

وعندما لمحت البراعم تتفتح في استحياء للنور قبلت رحيقها قائلا: أنا أعرف لماذا أنت اليوم مثقل نشوان؛ ذلك لأن ناعسة أحبتك. ستمر بك بعد قليل وسيحظى أريجك بأن يلف جسدها الرقيق، وستحدث نسيمك وهو يرافقها حتى الغدير، وفي أثناء عودتها لن تبخل عليك بقبلة تسكرك طوال المساء.

وقبيل الغروب حين رأيت ناعسة تمر أمام دارنا حاملة جرتها، غمرني ظلها الباهت الطويل، فسرت معه هامسا: أنا أعرف اليوم لماذا تتعثر صاحبتك في مشيتها، ولماذا تعني بتزيين جرتها، ولماذا تنتشر على وجهها حمرة خفيفة عذبة كلما مرت أمام دارنا، ولماذا تنظر خلسة إلى نافذتي وهي ترسلك إلي.

ولم أكن أحمق فأقول: لأنها تحبني.

بل همست لظلها: لأني أنا أحب ناعسة.

ثم عدوت في خجل بين الحقول الشاردة.

عندما انطلقت هذا الصباح لم يكن لدي ما أعطي ولم تكن لدي رغبه في أن آخذ.

فمررت بالأصدقاء وعبثا حاولوا أن يحصلوا مني على شيء أو أن آخذ منهم أشياء،

وحين مررت بها حيتني في ابتسامة سخية، حتى إذا ما خلفتها أحسست أن لدي فراغا يمتلئ.

وقلت في سذاجة: سأحتفظ بهذا السر لنفسي ولن أشرك فيه أحدا.

لكن نشوة السر المكتومة كانت كنبعة باردة تنتشر خلسة في دمي، حتى فاضت فرحتي تبغي تفجرا.

وعندما مررت في المساء عائدا بالأصدقاء، كنت أريد أن آخذ منهم كل ما لديهم لأعطيهم أكثر مما أعطوني.

فاستمعت إلى أحزانهم وأفراحهم وآمالهم وأنا أعطيهم قصتي في ابتسامات سخية نشوانة.

- ٥ -

إذا كان وصولك إلى قصر حبيبتك ذات مساء، ورأيت جمهورا من المزدحمين يتضاربون فراعك الزحام، لا تحسب أنك تأخرت، بل هدئ روعك، ثم اخترق طريقك بين المحتشدين، وإذا أخفقت فلا تيأس بل حاول من جديد.

وإلا فإن الليل سيقبل وأنت لا تزال خارج أبوابها.

فإذا ما أقبل الليل وأقفلت أبوابها وأنت لا تزال في العراء، وتفرق جمهور المزدحمين ورأيت نفسك وحيدا مع نجوم تشخص إليك، لا تحسب أن الوقت مضى، بل هدئ روعك، ثم تسلق هذه الشجرة التي تقبل نافذتها.

فربما انعكس ضوء غرفتها عليك فرأتك ذات لحظة.

وإلا فإن الليل سيوغل وأنت لا تزال بعيدا عن نور أجفانها.

فإذا ما أوغل الليل وأطفأت أنوارها وأنت لا تزال في الظلام،

وصمت النسيم، وضمت الطيور أجنحتها، وهربت الحياة على أطراف أقدامها.

فاعلم أن الوقت أزف، استجمع قوتك، ثم امسك نايك وانفخ فيه كل رغائبك.

إنها ستسمعك في هذا الصمت عندما تذوب أغنيتك في حلم من أحلامها الذهبية.

وإلا فإن الفجر سينتفض في الندى، وخفقاتك تجمدت لأنها لم تدفأ بخفقاتها بعد يا صديقي.

- ٦ -

لكل منا أيها الندماء تجربة حب.

رنانة بالضحك، مبللة بالدموع، ومزدحمة بالحياة، ورثناها حالما استيقظنا، ونورثها أبناءنا يوم نعود ننام، فاشربوا أيها الندماء نخب حبنا الجبار.

بعضنا أحب البرية، أشجارها وغدرانها قطعانها الوحشية، وبعضنا أحب خفقات قد تناغت مع روحه، وبعضنا أحب الإله... لكننا جميعا أغرمنا بالحياة.

فاشربوا أيها الندماء نخب حبنا العظيم.

حبنا لا يعرف الشواطئ، لا ولا يدري الحدود.

فحبنا ذواتنا هو حب للوجود، وحبنا للوجود هو حب للذوات.

نحن نحيا مع كل حي، ونحيي كل حسن، ثم نمضي صاعدين.

فاشربوا أيها الندماء نخب حبنا المجنون.

لكل منا أيها الندماء تجربة حب.

رنانة بالضحك، مبللة بالدموع، مزدحمة بالحياة.

ورثناها حالما استيقظنا، ونورثها أبناءنا يوم نعود ننام،

فاشربوا أيها الندماء نخب حبنا الجبار.

- ٧ -

الناس يحسبونني لا أعرف الرسم، ما يدرون أنني دائما أرسم.

حين كنت أجلس إلى جوارها كنت كثيرا ما أمسك قلما وأعبث به على ورقة من أوراقها البيض، وفي نهاية الجلسة تسألني: ما هذه الرسوم؟ فأجيبها: لست أدري.

وحين كنت في وحدتي أستعيد صورتها، كنت أمسك القلم محاولا أن أرسم وجهها فتخرج صورة ما قصدت إليها أبدا، لهذا أنجح هنا فقط في تمزيق ما فعلت بغير أن أريه لها.

وكثيرا ما أمسكت قلمي محاولا أن أعبر في خطوط وزوايا، في صور لأنواع من الحيوان لم يرها أحد في حياته، في ملء بياض الورق بسواد كثيف كثيف أعبر به عن أحاسيس غامضة تجيش في نفسي لا أكاد أفهمها كما لا أفهم ما أرسم.

إن سلتي قد امتلأت بهذه الأوراق ذات الرسوم الغريبة، وإنني لأرسم في ارتياح، في حرية وفى متعة أيضا.

لهذا فإنني أرسم ودائما أرسم وسأظل أرسم.

- ٨ -

القرية كلها تعرفني مع نايي، فهم يدعونني معه في أفراحهم ومآتمهم وأحيانا عندما يفرغون في المساء من أعمال حياتهم يأذنون لي أن أبدأ عمل حياتي. لكن أحدا منهم

لا يعرف شيئا عن أسرار منزلي. فقط ألمحهم أحيانا يهمسون: هذا هو منزله، هذا هو منزله.

هم يعلمون أن منزلي لا يقع وسط القرية، بل على الطرف الشرقي يسر له النيل خفاياه، أما وسط القرية فقد شغله الجزارون، وبنى العمدة فيه قصره، لكن أحدا منهم لا يعرف من يعد لي الطعام ولا من يعني بزهور حديقتي السحرية.

أما أنا فأعلم، أعلم أنني أنا الذي أعد لنفسي طعامي، عندما أعود كل مساء أوقد النار أتأملها وأنا أطهو ما جمعت من حقول النهار. وفي كل صباح آخذ تحت إبطي طعام الغداء. ثم أنطلق أغني للناس أفراح زواجهم وهم يحسبونني ما عرفت فرح الزواج.

وأنا أيضا أعلم، أعلم أنني أنا الذي أتعهد بنفسي حديقتي: فأقضي الساعات الطوال أجلب إليها شجيرات سحرية وأروي زهورها من ماء بئر حفرتها بنفسي، وقد ألمح آثار عاشقين لجآ في المساء إليها فأبسم، ثم أنطلق أغني للناس أحزان مآتمهم وهم يحسبونني ما أعرف ألم الموت.

وأنا أيضا أعلم، أعلم أنني لا أغني للناس إلا أردأ ألحاني فإذا عدت في الليل وحدي جلست أمام حديقتي أغني أفراحي وأحزاني، وأعلم أن هؤلاء الذين يسهرون سيسمعون مني أروع الألحان حتى ترسل الشمس أول ابتساماتها.

القرية كلها تعرفني مع نايي، لكن أحدا منهم لا يعرف شيئا عن أسرار منزلي، إلا هؤلاء الذين أرقوا ذات ليلة فوصلتهم في الصمت أنغامي، بينما الجزارون قد تعبوا وناموا، وأطفأ قصر العمدة أنواره، حتى يتنفس الصبح نشوان.

القسم الثاني

- ١ -

حين رأيتني مضطربا، أنفخ في ناي خشبي ضعيف... أقبلت لتدخلي عزلتي، وأعطيتني نايك الصامت كي أنفخ منه آلامنا، ويقتسم معنا أحزاننا، ويزيدنا أفراحنا، لكنني ألقيته جانبا، وانطلقت من غرفتي المحدودة، مارا بدور القرية، محاولا أن ألحن لكل قلب خفقاته في نايي الخشبي، فما كان يطرب لي أحد، وفي المساء أعود لألتهم منك العشاء، ثم في الفجر أنطلق وما غنيت لك لحنا.

وذات مساء رجعت إلى غرفتنا، فوجدتك جثة هامدة، ونايك المهمل قد اكتسب لونا من ذهب. فحطمت نايي الخشبي، أمسكت نايك بين يدي في عنف. ومن يومها لم أخرج من غرفتنا، بل ظللت أغني لروحك المرفرفة، للوعتي لذكرياتنا، لآمالنا الضائعة! فأتى الناس يزدحمون حول غرفتنا: بعضهم يسمع أغاني الفجر، وبعضهم يمر في المساء، والبعض يأتي في أعماق الليل، أما روحك يأيتها الجثة الجميلة، فستظل تسمع كل إنشادي.

- ٢ -

كي أتحرك، لابد أن أترك، لكنني سأحصل، في كل فجر، بعد كل منحنى، على شمس جديدة وأرض جديدة، أضمهما إلى عالم تركته ورائي لكنه بي،

فأزداد... وأنا أتحرك في فرحة صارمة.

كي أتحرك، لابد أن أترك، لكنني سأحصل،

في النهار أو الليل في القيظ أو البرد، على دمعة هنا أو فرحة هناك،

أضمهما إلى طريق بدأته في السفح لكنه معي،

فأعلو... وأنا أتحرك في نشوة رائعة.

كي أتحرك، لابد أن أترك، لكنني سأحصل،

في الظلام على النور، في الضعف على القوة، وفي الرمز على المعنى،

أضمه إلى محيط أمواجه فوقي لكنني فيه،

فأوغل... وأنا أتحرك في طمأنينة واثقة.

كي أتحرك، لابد أن أترك، لكنني سأحصل،

على ذكرى على جرح، على أمل على حلم، على ما أرى وما لا أرى،

على كل ما أريد،
أضمه إلى كون جميعه يموت ليحيا،
فأتحرك... كي ترتعش روحي مع وجود في شبه حمى دائمة.

- ٣ -

بينما أنا ماض في ألعابي الخطرة يأيتها العابرة،
لمحتك تعجبين، ولمحتك تجفلين، ولمحتك تهربين،
لكن شيئا واحدا لم تستطيعيه،
كنت أريدك مثلي تلعبين ومعي تشتركين،
عساي أعجب، أو أجفل، أو أهرب... مثلما تفعلين،
لكنك اكتفيت بأن تعجبي بألعابي كبقية المتفرجين،
حين اقتربت منك في دورة خطرة فلمحتك تجفلين،
فتظاهرت بجذبك معي داخل الحلقة لألمحك تهربين،
متمتعا بمرآك، مضحكا معي نظارتي المنتشين الخائفين،
وأنا ماض في ألعابي الخطرة يأيتها العابرة،
معرضا نفسي لهرب المعجبين.

- ٤ -

حين ألقيتني خارجا في الطريق كان الغسق يكلل السماء، فلمحت الشمس تغيب وإن لم أكن تمتعت بشروقها،

ولم أكن أعرف أين أسير فما عرفت سوى طريق عينيك، حين قمت أعدو وراء الشمس الغاسقة عساي ألحق بها.

وبدأت حياتي عدوا مستديما وراء شمس غاسقة، قطفت زهورا من الغابات، أكلت سنابل من الحقول، عببت من حانات وغدران وأنهار، كلها يكللها جلال الغسق، فعلمت أن فرحة النهار الذي أمضيته معك كادت تقتلني.

وأصبحت حياتي عدوا مستديما وراء شمس غاسقة، مررت بمدن جديدة، صعدت تلالا، هبطت وديانا، رأيت جمالا كنت قد أخفيته عني، كله يكلله جلال الغسق، فعلمت أن فرحة النهار الذي أمضيته معك كانت تحصرني.

وظلت حياتي عدوا مستديما وراء شمس غاسقة، رقصت مع الخرير والهدير، أنشدت شعري للزنابق والوعول.

غنيت للناس آلامهم وأحزانهم وهم يعودون ساعة الغسق،

فعلمت أن فرحة النهار الذي أمضيته معك كانت تحجبني.

فإذا حننت ذات يوم إلى مخدعك الذي طردتني منه،

لا تحسبيني سأعود لأعب من عينيك، فقد ذبلتا،

وسترين ملامحي تغيرت كثيرا، والبياض في شعر رأسي كسحابة الصيف.

وقد علمت أن تشردي الذي أمضيته مع الغسق يحييني دائما.

سأحاول أن أجفف جبهتي، وأمسح الدموع،

ثم أعطيك بعضا مما قطفت ورأيت وأنشدت،

فإذا لم تعرفيني سأعود حاملا ما رفضت لأجلس على منحنى الطريق،

مغنيا للمارة الغرباء أنشودة الغسق البهيج.

- ٥ -

كنت في الغابة وحدي،

بينما الأشجار والحيوان، والغيوم والظلال، وكل نبعة ماء تتنصت لي،

فقد كنت أحيلهم أنغاما كي يسمعوا أنفسهم من نايي، واجعل الكل أصدقاء - للناي ولي - في لحن رائع،

لكن أحدا في الغابة لم يأخذ الناي مني كي ينفخ فيه لي.

لهذا كنت في الغابة وحدي.

ذات مساء أقبلت في غابتي حسناء،

فرجوتها أن تغني لحن نايي،

لكنها لطمته وأوقعته ثم مضت من غابتي،

فذهبت، وانحنيت، والتقطت نايي أحيل كل ما في الغابة لحنا،

عساها تعود مع نسمة أو قطرة أو قطعة من ظلام كي تسمع نفسها من نايي.

لهذا سأظل في الغابة وحدي.

- ٦ -

لا تحسبينا أخطأنا حين التقينا يا عزيزتي فما كنا الغاية من لقانا، بل جسرا يعبر عليه كل منا ماضيا في طريقه الممتد إلى غير ما نهاية.

لهذا لا تندمي لأنك مررت بحياتي، فحيث اقتربنا تكون لدي كنز ثمين، ويوم التقينا كانت حياة صاخبة مزدحمة بالضحك والدموع.

ولا تأسفي لأنني مررت بحياتك، فكثيرون يمرون بها لكنهم يمضون صامتين، وأنا وحدي الذي استطعت أن أملأها مغنيا لك.

ولا تجهدي نفسك في نسياني، فسريعا ما يمر الزمان وتبهت صورتي لديك شيئا فشيئا حين تختفي وراء ذكريات جديدة ودافئة.

ولا تحرميني متابعة طيفك، بل ائذني لي أن أقسو عليك لحظة، وأن أحنو عليك لحظات، وأن أصلي من أجلك كل مساء.

ولا تخشي يا عزيزتي أن تستمري سائرة، بل امضي عالمة أنك ستفرحين قلوبا وستؤلمين قلوبا طالما كان قلبك أنت نابضا بالحياة.

ولا تشفقي على دموعي بل اتركيني أمتزج بها، فما كان الفرح غايتنا بل جسرا يعبر عليه كل منا في طريقه الممتد إلى غير ما نهاية.

- ٧ -

عندما لمحتها من شرفة قصرها،

ذهبت واشتريت بكل ثروتي عقْدا يتلألأ كالدموع،

ثم عدت أقدمه لها عساني أملك فرحة قبوله،

لكن كانت ثمة جوهرة لم أتنبه إليها منطفئ لونها قليلا،

فأهانتني وغلقت بابها في وجهي، فقررت انتقامي.

وفي المساء تسللت إلى قصرها المنيع،

وهناك مررت بها نائمة فقبلتها هامسا أحبك،

ثم جعلت أسرق كنوزها ما بين براقة كالأمل أو ثقيلة كالحزن،

ونظمتها مع لآلي عقدي بقية الليل في خيط لونه قان،

وفى الصباح بعثرت ما نظمته على فقراء مدينتها، فأتممت انتقامي.

- ٨ -

في كل شتاء يحدث أن ينهمر المطر في قريتنا ذات ليلة فيرتجف الناس،

وفى الصباح تعبر العاصفة، لكن يملأ الوحل الطرقات.

ثم ترسل الشمس لهيبها يجفف آثار العاصفة.

وفي الظهيرة يعود الناس يمشون في الطرقات.

- ٩ -

لا تحسبيني أحببتك وحدك،

فقد أحببت النور والحياة، والأيائل والزنابق، والأفراح والآلام،

لكنك وحدك التي أغمضت عينيك قبل أن ينتشر الظلام،

ولولاهم للعنت حبي، فقد أخبروني ذات يوم تستيقظين.

ولا تحسبيني غنيت لك وحدك، فقد غنيت للعذارى والأمهات، وللشباب والكهول، وللأحياء والأطياف،

لكنك وحدك التي انصرفت قبل أن أتم نشيدي،

ولولاهم لحطمت نايي فقد أخبروني ذات يوم تسمعين.

ولا تحسبيني بكيت فراقك وحدك،

فقد بكيت للأمهات تلد وللأجنة تولد، للمرضعات تفطم أطفالهم وللأطفال يفطمون،

لكنك وحدك التي هزأت بدموعي قبل أن تنحدر.

ولولاهم لكظمت حزني فقد أخبروني ذات يوم تبكين.

ولا تحسبيني قدمت حياتي لك وحدك،

بل حين قدمتها إليك كنت ألمح الأجيال فيك بحبها، وأغانيها، وبكائها،

وأنت وحدك التي رفضت أن تقبليها،

فأذني لي إذن أن أمضي في تقدمتي حتى تُقْدمي لهم حياتك أنت أيضا.

- ١. -

حين قدمت إليك حلمي فشوهته وأنت تشفقين،

حسبت أن روحي تلفت، وأيامي انطفأت، والقبور لي،

لكن حين خففت أعماقي تضاءل أمامي ما تفعلين،

فما كان أول جرح ولا آخر الجراح.

حين قدمت إليك حلمي فشوهته وأنت تجهلين،

قلت سيترك القوم طريقهم ويأتون معي ويبكون،

لكن حين استمروا في طريقهم تضاءل أمامي ما تفعلين،

فما كنت أول من تعذب ولا آخر من يتعذبون.

حين قدمت إليك حلمي فشوهته وأنت تسخرين،

ظننت الشمس ستظلم، والنجوم ستذوي، والشهب تتساقط،

لكن حين ظل كل شيء باسما مطمئنا تضاءل أمامي ما تفعلين،

فما أنا أول ولا آخر الأحياء.

- ١١ -

كنت أعلم أننا نزداد قربا كي نصل أخيرا إلى لحظة فيها نفترق،

وكنت أعلم أنها لحظة -كالموت - لا يمكن أن نعرف متى تكون،

وكنت أعلم أنها لحظة - كالقدر - لا يمكن أن نعد أنفسنا لها،

ولحظات فرحنا الصامت كانت طريقي المحتوم إلي الألم والدموع.

وذكرياتنا وأحلامنا وخفقاتنا كنا نجمعها في نهم حتى نحس سريعا أننا كبرنا بحيث لابد أن نفترق.

وأنا أرقب الزمن... وأنسى أنه سيشمل أمي كما يشمل فرحنا.

وأبثك إيماني في كل لحظة: إن حضني هو آمن مكان لك في العالم.

وذات يوم رأيتك تنطلقين، وحيدة، وثائرة إلى حيث لا أعرف ولا تعرفين.

وبدت لك في لحظة العالم وضجيجه أكثر طمأنينة من حضني الوداع الدافئ.

وذكرياتنا وأحلامنا وخفقاتنا تبلورت جميعها في كرة من الدم أخذت تغرق في هدوء.

أما أنت فانطلقت، فرحة بالعالم الجديد، حيث هناك يريدك الكثيرون.

حتى عبرت الشاطئ الآخر، ناسية في الضجيج المتعالي خفقات قلب شجاع صبور.

فاستقبلوك بالهتاف، حتى أصبحت لديك ذكرى بغيضة موحشة،

واندفعت... وأنا أرقب عسى أن يكون هناك من هو أكثر إخلاصا لك مني.

ووضع البعد غشاوه بيني وبينك،

واختلطت بالضجيج والزحمة والناس حتى لم أعد أميزك في سهولة من بينهم.

ولحظة الفراق - كالموت - لا يمكن إرجاعها،

ولحظة الفراق - كالقدر - نتقبلها ولا نختارها،

وكرة الدم ما تزال تغرق كأنما إلى غير قرار.

- ١٢ -

كنت في طريقي إلى الصمت الكبير،

وأنا أرسل أنغام نايي كي يلقى بها أصدقائي أهوال الطريق، وحين مررت بها حسبت أصوات نايي أزعجتها،

فأخفضتها وهرولت...

وحين أردت أن أعود، أخبروني أنها سبقتنا في الطريق.

- ١٣ -

الليلة أعددت وليمتي الكبرى

فإذا مررت أمام داري في المساء، لن أناديك كما تعودت في طفولتي.

بل إذا كنت في جوع وراقتك رائحة الطعام، فسأرحب بك وأنت تقبلين.

أما إذا كانت ثمة مباهج في الطريق تشغلك عن طعامي فسأدعك تمرين.

متمتعا بوحدتي وأنا ألتهم وليمتي الكبرى.

- ١٤ -

تقدم ولتأخذ، وإلا عدت فارغا فلن يتصدق عليك أحد.

وحين تأخذ ستطلب المزيد، وإلا فإنك ستحس الجوع من جديد.

ولا تتصدق إذا ما سرى الدفء فيك لئلا يصدمونك حين يرفضون.

بل امسك نايك وانفخ فيه أفراحك علهم يتشوقون فيتقدمون هم أيضا ويأخذون.

- ١٥ -

إذا كنت قد أزعجتك فاغفري إزعاجي...

فإذا جلست ذات يوم تقرئين كتابك ساعة الغروب فبعثت بعض السطور ذكراي.. لا تبخلي علي بلحظة، بل اطوي كتابك ثم اغمضي عينيك، واسمعيني من داخلك.. فربما وصلتك أصداء نايي، حتى إذا ما أخذت تبتعد عنك شيئا فشيئا، فافتحي عينيك، وافتحي كتابك واقرئي السطور.

أما إذا كنت قد أزعجتك فرجائي أن تغفري إزعاجي.

القسم الثالث

- ١ -

عندما أقبل الهزيع الرابع كنت قد أتممت صورتها، متألقة، كآمالها، مشتعلة كحنينها، ورقيقة كحنانها. وبغير ما انتظار للفجر ذهبت في لهفة أعدو نحو دارها، وفي برودة السحر أيقظتها وأنا أطرق بابها، فقامت وفتحت لي قليلا، تتطلع إلى هذا الغريب الذي سيزاحمها وحدتها.

ومن فرجة الباب رأيتها ملتفعة ثوبها الليلي، فقدمت إليها اللوحة في فرح وأنا أهمس: تلك صورتك يا سيدتي. فاختلجت شفتاها بابتسامة حزينة وهي تأخذها. وتطلعت في انتظار وقلق وأنا أراها تتأملها كأنما في دهشة، بينما كان عطرها المختلط ببرودة السحر يغمرني، مع أنها ما عرفتني.

ومن فرجة الباب أعطتني ما أعطيت، وعيناها المغرورقتان تهمسان: لقد أخطأت المكان، ليست صورتي يا سيدي! فرجعت أتعثر في خجل وأنا أسمع تنهدات خلف بابها المردود.

ورحت أشرد في الطرقات أتأمل في حيرة صورتها على ضوء السحر واثقا أني لم أخطئ المكان.

حتى إذا ما انبثق الفجر رأيتني أتأمل صورتي!

- ٢ -

في حديقتي ثمة زاوية مهجورة يا أصدقاء، لم تقربها فأسي ذات يوم ويغمرها لون من تراب. تكدست أشواكها في عزلة وصمت أبديين، بينما تزدهر الورود كل ربيع وتذوي كل خريف في بقية حديقتي.

لكن يبدو أن بذرة سحرية حملتها الريح هناك، فذات فجر خريفي لمحت برعما يستيقظ بين الأشواك، بينما كان الشتاء آتيا، وزهور حديقتي كلها تندفع في اضطراب، تختفي بين غصون أشجارها الجرداء.

وأقبل الشتاء، فكنت كلما خرجت إلى حديقتي رأيت البرعم السحري يتفتح في ارتعاش، مغمورا في دموع الليل، مستنشقا غبار العاصفة، مصبوغا بلون البرق، بينما الزهور كلها احتمت بين أحضان أغصانها السمراء.

وقبيل الربيع أصبح البرعم وردة عميقة الألوان مثقلة بالرحيق، واختفت رائحة الوحل المختلطة بعطرها العنيف، واستيقظت زهور حديقتي تنفض عنها الأحضان التي آوتها في الشتاء.

وأخيرا حين أقبل الربيع خرجت أبحث فرحا عن صديقتي بين الأشواك، لأشهدها تتمتع بالحياة والجمال، وأريها في سذاجتي روائع ما رأتها في الشتاء... لكن صدقوني يا أصدقاء، أني ما وجدتها هناك!

- ٣ -

كنت واقفا بالأمس عريانا أمام غدير، حيث رأيت خيالي منعكسا فيه. كنت موقنا أنه خيالي، لأنه كان صورة من نفسي، بحيث أنني كنت كلما تحركت تحرك هو الآخر مثلي، وحين انحنيت عليه أتأمله انحنى نحوي يتأملني:

وعدت أتأمل فيه: لم يكن عريانا تماما مثلي، فقد كان مغمورا في هذه المياه التي تفصل طبقة منها بيني وبينه مما جعل معالمه الدقيقة غامضة عني، لكنني كنت أستطيع أن ألمح بوضوح كاف أنه كان جميلا مثلي رائعا كنفسي، يضحك إذا ما ضحكت ويبكي إذا ما بكيت.

ولم أكن قد رأيت من قبل أحدا من الناس في مثل هذا الإخلاص. فعجبت كثيرا لماذا نظل منفصلين هكذا ولماذا لا أصبح أنا وهذا الآخر شيئًا واحدا فأنزع عنه هذه الغشاوة التي تغطي جسده الذي يشبه جسدي.

ورأيته يرتعش أكثر من مرة، فقلت: لاشك أنه مضطرب لوجوده وحيدا في مثل هذا المكان. وظننت أنني الإنسان الذي يستطيع إنقاذه، مما أضاف إلى رغبتي شعورا نبيلا سعيدا.

ولقد كنت مترددا أول الأمر، لكنني حين عدت أنحني عليه رأيته ينحني هو الآخر نحوي، مما شجعني وأزال أخيرا كل تردد من نفسي.

وقد اندفعت في المياه مخترقا هذه الطبقة، وغصت حتى الأعماق ثم عدت أطفو فارغا على السطح.

وأخيرا خرجت من الغدير وأنا مغتسل مما لصق بي أثناء النهار، وبشرتي تلمع في شعاع الأصيل، رغم أنني لم أقصد إلى هذا أبدا.

حين رحلت عن الغدير عائدا إلى المدينة والأحياء، مشتركا معهم في مسراتهم وآلامهم وصخبهم وضجيجهم كنت موقنا أن خيالي ترك الغدير هو الآخر كي يقوم وحده برحلة جنونية مرهقة في أعماق الأرض.

- ٤ -

كان لي كوخ وبئر رابضان عند منحنى الطريق، وكأس ذهبية أترعها لكل من يمر ظامئا.. وذات ليلة اكتسحت العاصفة كوخي الصغير، فطمست بئري، وحطمت كل شيء إلا كأسي الذهبية. فقلبتها بين يدي في حيرة وأنا أذكر كيف أرويت بالأمس منها... العابر الأخير.

وانتظرت حتى تبلج الفجر، فجلست على حطام كوخي أسأل العابرين أن يملئوا لي كأسي الفارغة، لكنهم كانوا يمضون وهم في ريبة يهمسون: نقودنا من فضة كيف نلقيها في كأس من ذهب؟ وقبل أن يولي النهار وجدتني أحفر بئري من جديد. حتى إذا ما أقبل الغروب كنت قد استطعت أن أروي... العابر الأخير.

- ٥ -

لنا جارة يحسبونها مجنونة، ترملت يوم ولدت وحيدها، فجعلت تسهر الليالي تحيك بإبرتها كي تربيه، حتى أصبح شابا قوي العضل جميل الوجه، وكانت تفخر به قائلة: هذا خلاصة من نور عيني ودموع ليالي. ثم جعلت تبحث له في فرح قلق عن شريكة حسناء.

لكن حدث ذات يوم أن غرق الشاب في نهر قريتنا، قلت لهم: لا تعزوها بل اسكبوا معها أحزانكم ودموعكم. لكننا شاهدناها تصيح: لن يموت بعد هذا، لن يموت بعد هذا، ثم راحت تضحك وهي لا تزال تحيك بإبرتها. لهذا يحسب الناس أن جارتنا مجنونة.

- ٦ -

كنت أقف بالأمس أمام باب حديقتي، حين اقتربت مني في بطء فتاة ذات ثياب رثة، تحمل خرجا فارغا على كتفها. فلوحت لها بقرش في يدي، لكنني رأيت وجهها يشرق فجأة وهي تقول: أتأذن لي يا سيدي أن أجمع الزجاج المتكسر الذي يلقيه أطفال القرية في حديقتك؟ وكان صوتها المنكسر عميقا وقويا يأذن لها أن تدخل حديقتي، فتركتها طوال النهار تجمع قطع الزجاج المنتشر بين الزهور والرياحين.

وفي المساء كانت قد تركت وراءها بقعا من الدم هنا وهناك، وحملت معها كل قطع الزجاج، حتى تلك التي كانت على سور حديقتي كي تمنع الأطفال أن يقفزوا داخلها، وفي الصباح كان الأطفال قد استطاعوا أن يدخلوا حديقتي.

عندما أتم الفنان تمثاله الرائع كانت ثمة ابتسامة على شفتيه فوضعها على شفتي تمثاله، ثم ذهب وأقامه قريبا من أكبر الجسور في الطريق واختبأ وراء بضع أشجار...

ومر بعض الصبية في الطريق، فأخذوا يتسلقون الأشجار المحيطة ويتراشقون بالحصى ويتبادلون النكات. ثم عبروا الجسر وما يبدو أنهم أحسوا وجود التمثال. فعبس الفنان. وحين جرى كي ينتزع التمثال ليعود به إلى غرفته وجد الابتسامة على شفتيه.

وبعد ساعة من الزمان مر موكب من الحسان، ولمحن التمثال فأخذن يهزأن به ويرشقنه بالحصى وهن سائرات في طريقهن إلى الجسر. فاغتاظ الفنان. وجرى كي ينتزع التمثال ويعود به إلى غرفته حين وجد الابتسامة ما تزال على شفتيه.

وفي الظهيرة أقبل شحاذ في أسمال بالية، وأدار عينيه في المكان، ثم اقترب من التمثال وجلس في ظله يستريح. وعندما قام ليعبر الجسر كان قد لوث التمثال. فغضب الفنان

وأراد أن ينتزع التمثال ويعود به إلى غرفته لكنه وجد الابتسامة قد استقرت.

وظل الفنان ينتظر حتى أقبل المساء، بغير أن يقترب شيء من تمثاله سوى زهرة من بعيد كأنما تطلعت إليه ذات لحظة وغير عصفورة حطت عليه هنيهة. لكن الآن كانت الزهور قد أغمضت أوراقها والعصافير قد نامت والبرد يشتد والظلام يزحف رهيبا. فرأى الفنان المرتعش التعب أن يحطم التمثال قبل أن يعود لينام. لكن التمثال لم يكن قد نام ولا ارتعش، ورأى الفنان الابتسامة الغنية قد أشرقت في خلودها. فقبله وهو يبكي، ثم تركه في مكانه مع صمته الباسم.

أما هو فقد عبر الجسر أيضا.

- ٨ -

كان الصبي قد ترك المدينة منذ الفجر وظل يحفر طوال الصباح في هذه الأرض الجبلية حتى حصل على كومة من الذهب بهر نورها عينيه، وقبيل الظهر كان العرق يتصبب منه بغزارة، وكان الجوع قد أنهكه. فجلس يأكل ويستريح. وغلبه النوم فنام. وعندما استيقظ وجد أن كومته تحولت

جميعها إلى تراب، إلا من ذرة تبرق هنا أو ذرة تلمع هناك. فانزعج الصبي وهاله أن تستحيل كومته إلى تراب.

وكان يقطن في هذه الناحية راهب شيخ يزعمون أن عمره عمر الإنسانية، فأسرع الصبي يقص عليه قصته. فابتسم الراهب وقال: تلك طبيعة المعدن في هذه الأرض يا بني، أن أكثرها مع الزمن يستحيل إلى تراب. لكن لا تنس أنك قد حصلت على ذرة أو ذرتين هما أغلى من ذهب العالم كله. وعندما عاد الصبي بدأ يحفر من جديد.

وفي المساء مر الراهب فوجد كومة كبيرة من التراب إلى جانبها جثة من تراب. لكن كان ثمة ذرات من الذهب تتلألأ، فالتقطها الراهب الشيخ في خبرة، وعاد بها يضمها إلى ذهب صومعته الكثير، يستنير به كعادته أثناء الليل.

وفي الصباح التالي كان الراهب يبسم وهو يسمع ضربات معول جديد.

- ٩ -

أتذكرين يا أختاه ذلك الرجل المكتنز الذي أقبل إلى جزيرتنا في الربيع الماضي؟ لقد زار دارنا وأحب أن يهديني ثوبا براقا غريبة ألوانه، فرددته قائلة: سيضحكن مني أخواتي

لو ارتديته، نحن عريانات دائما يا سيدي. لكنه مضى حزينا ولم يعد من يومها يا أختاه.

أتذكرين أيضا ذلك الأشيب حين أقبل إلى جزيرتنا في القيظ الماضي؟ لقد زار دارنا وحاول أن يهديني كتابا من صفحات بيضاء بها خطوط سوداء، فرددته قائلة: سيلوثنه صديقاتي لو أخذته، نحن لا نعرف القراءة يا سيدي. لكنه مضى حزينا ولم يعد من يومها.

أرأيت إذن ذلك الأمير الشاب عندما أقبل إلى جزيرتنا في يخته بالأمس؟ لقد جاء دارنا يأوي من جفاف الخريف، وحين رآني ربت على كتفي وأعطاني رقائق من الصفيح قال إنها نقود من ذهب، فرددتها قائلة: ماذا نفعل بها؟ نحن هنا لا نتعامل إلا بالأصداف والحصى. فتجهم وجهه، ولم ينم ليلته، وانصرف إلى الأبد.

لماذا لا يفضلون الرقص مثلنا يا أختاه، ولماذا يمضون جميعهم في حزن نرد لهم هداياهم ولا يعودون؟ أتراهم يذهبون في البحث عن جزيرة أخرى فيها من يتقبل هداياهم؟ أنت تعلمين أن أهل الجزائر يفضلون الرقص مثلنا... وأخشى أن تظل هداياهم لهم يا أختاه.

كان الغريب قد أوشك على الرحيل، وكان باب غرفته بالفندق مفتوحا ينادي عاملا يحزم له أمتعته ويزوده بزاد للطريق، حين قام في خطوات متئدة يفتح النافذة ليلمح منها شعاب هضبة سيبدأ منها رحلته. فهبت على وجهه نسمات السحر وهو يهمس: الليل مضى، وأزف وقت الرحيل.

كانت أكواخ القرية المطمئنة يخدرها ظلام الليل العميق، كلهم مواطنون وهو غريب لا يدري كيف هبط القرية تلك. أخبروه أنه بين الحين والحين يهبط بقريتهم غريب بلا أهل ولا وطن، فيأوي في هذا الفندق البلوري العجيب حتى يناديه الشوق إلى عالم مجهول. أتراه واحد منهم؟ لكن أين زاده للطريق؟ آه.. أن الليل مضى، وأزف وقت الرحيل.

كان يسمع وقع خطوات لحنها السحري يمر ببابه المفتوح، ثم تموت. وقبيل انبلاج الفجر دنت خطوات من فرجة بابه وأطل منها وجه ساذج لفتاة تبتسم، سرعان ما تجهم وجهها حين رأت غرفته الخالية وشعره الأشعث ووحدة قاتلة تضمه، ثم انطلقت تعدو، فصاح.. آه مضى الليل، وقد أزف وقت الرحيل.

وعندما كانت الشمس تختال متدثرة بضباب الفجر، بكر أهل القرية كي يشاهدوا الغريب ينساب وحيدا بين شعاب هضبة لا يدرون ما وراءها. كان ثمة هالة تحيط به، وحسبوا الشمس ترقص له، لكنهم كانوا يتساءلون: من ذا الذي أعطاه زادا للطريق اللامحدود. ولم يجبهم أحد، حتى الفتاة الساذجة لم تعرف من ذا الذي أعطاه زادا أبديا للطريق.

القسم الرابع

- ١ -

إنها وحيدة يا إلهي فلا تتركها،
بلا دفء بلا رفيق، بلا نور في الطريق،
وهي عابثة يا إلهي فاغفر لها،
صياحها وقفزها في المعبد الرهيب.
إنها وحيدة يا إلهي فامسح على،
أناتها... آلامها... وكل دمعة من روحها.
وهي صغيرة يا إلهي فاحتضنها،
في الأفراح... في الأحزان، وفيما يلد لها الزمان.
إنها وحيدة يا إلهي فلتكن لها،
الأب والشقيق، وفي الدجى الخاطر الرقيق.
وهي يتيمة يا إلهي فلا تدعها،
بلا دفء بلا رفيق، بلا نور في الطريق.

- ٢ -

حين كنت في أحضانك كالنبع بين الجبال، لم أكن أدري أنك تظللينني، فما عرفت من قبل العراء، وذات يوم أقبلت

غيوم أذنت لها أن تسيل حتى دفعتني عنك. وحين رحت أتدفق في البراري والسهول ذكرت الأحضان التي ظللتني.

إننا نحن حين نتغرب، ونضع مسافة بيننا وبين كل جمال نريد أن نتأمله، وأسألك يا إلهي أن تهبني القداسة حتى أستطيع أن أحصل عليك وأنا قريب منك.

- ٣ -

اغفر لي جرأتي.....

فحين خرجت هذا الفجر إلى حديقتي أبحث عن وردة أضعها على هيكلك كعادتي كل صباح، وجدت الجفاف قد أذوى كل الورود، والعاصفة التي لا تزال تهب منذ أعماق الليل تذرو الأوراق الشاحبة الصفراء فجئتك الآن يا إلهي ويداي فارغتان.

واغفر لي جرأتي...

حين أسألك أن تجعل قلبي التعب وردة لا يصيبها الجفاف، تزيدها العواصف جمالا وازدهاء، أرفعها إليك كلما خفقت نفسي خفقة وهي فرحة بك في انتصار أو لاجئة إليك في انكسار. وينتشر منها أريج عنيف حين أصلي في هيكلك كل صباح وكل مساء.

- ٤ -

لابد أن تنصت من أجل أن تسمع،

الصمت في الأعماق، والهمس في الضجيج، والسر في الأنغام.

لابد أن تتطلع من أجل أن ترى،

في نفسك الألوان، في ليلك الفجر، في الغابة الطريق.

لابد أن تقرع من أجل أن تدخل،

عالم المجهول، ودنيا المستحيل، وما وراء الصمت.

لابد أن تتألم من أجل أن تفرح،

بخفقة بخلجة، أو نهاية عظيمة، أو راحة عميقة.

لابد أن تسأل من أجل أن تأخذ،

من عالم الخلود، والفرحة النشوانة، كل ما تريد.

- ٥ -

لست أستطيع أن أنتظر.

إنني أندفع في تلهف،

فاغفر لي يا إلهي تلهفي وأنا أجاهد في عناد حتى بإيمانك أفوز.

لست أستطيع أن أغفو،

إنني أتطلع في تشوق،

فاعن يا إلهي عيني المسهدتين حتى تريا وجهك المتلألئ الحنون.

لست أستطيع أن أصمت،

إنني أصلي في لجاجة،

فاصغ يا إلهي إلى لجاجتي الخجلة المضطربة حتى تنبثق في نفسي أغانيك،

لست أستطيع أن أبكي،

إنني أرتل في فرح أناشيدي الخافتة إلى أن تفنى مع رعودك،

فتغمرني أفراح صمتك الغني العميق.

- ٦ -

أنت قد تمتحنني يا إلهي، لكنني واثق من حبك لي، فأنا جزء منتشر في ضباب الكل، وأنا واثق من حبك الكل، وأنا لا أستطيع أن أحيط بك يا إلهي، فهب لي حبك وقلبي سيعبر المعلوم حين يبلغ الإيمان.

أنت تعلم أننا فانون، فهب لي أن أحبك حتى يحويني الخلود،

وأنت تعلم أننا محدودون، فهب لقلبي يا إلهي أن يهيم باللامحدود،

وقلبي سيعبر الممكن حين يبلغ الإيمان.

- ٧ -

أحبك، أحبك، أحبك، أكثر من الحياة والحب أحبك، أحبك، في دموع الليل،

وفي النسيم الضاحك مع الصباح أحبك،

عند المعابر المزدحمة، وفي ظلال الزوايا المتألقة بالهجران، فوق التلال، في أعماق اليم، وبين الأقاحي على الصخور....

أحبك أحبك حتى الاشتعال وحتى الأبد، حتى الجزع وحتى الموت، وإلى الجنون يا حبيبي أحبك.

أحبك وضباب الخريف يخفيك عني، وحين تشرق في جلال مجدك سأنتفض صارخا:

إني أحبك، أحبك، أحبك، أعمق من الصمت ومن الحب أحبك.

القسم الخامس

أعمق من الانفعال

"أنت طريقي إلى الخلود، خلود لا تحاسبني عليه الأجيال القادمة كأن يبقى اسمي بينها ثلاثة قرون أو أربعة، بل الخلود الذي أحسه فيما بيني وبين نفسي كلما عشت لحظة عميقة معك".

غروب

صديقي:

إنني أعيش هذه الأيام في دهشة مستمرة...

الأشياء المألوفة أراها جديدة علي... وما اعتدته كأنما أستمتع به للمرة الأولى. لقد رأيت الغروب بالأمس وأدركته من جديد، وعشت التجربة يا صديقي كما لم أعشها من قبل، واستوعبتني اللحظة الرهيبة واستوعبت معها كل حياتي الماضية.

كان النور يملأ جوانب السماء والأرض، وكان الناس يتحركون في سذاجتهم الحلوة نحو شهواتهم ومسراتهم وآلامهم... وانبسطت أمامي مياه النيل تسبح في النور، ومن

فوقها رفت بضعة أطيار وأشرعة بيض، وهناك، ومن بعيد، كانت ظلال الأشجار والتلال والأفق اللامحدود تضطرب جميعها في النور. كان النور يلف الكل في عباءته الدافئة الناصعة. لكن الشمس، مصدر النور، كانت قد أخذت تميل، كأن ثمة حدثا رهيبا محتما قد أوشك على الوقوع.

وبدأت الشمس تغرق بين الغيوم، وهناك جعلت أبحث عن لون آلفه وأحبه، كنت أبحث عن اللون الأحمر الداكن المنطفئ،.... وقد كانت فروق اللون الأحمر ودرجاته كثيرة جدا ودقيقة جدا لا يكاد الغريب يميز بينهما. أما أنا فكنت أعرف جيدا لوني الذي أريده... لم يكن قد ظهر بعد. لم يكن الغروب قد بلغ أوج روعته.

وأحسست صلة أخذت توجد بيني وبين الكون جميعه وقد تركزت ينابيعه هناك... حيث الغيوم المخملية والشمس المتقدة الحمراء وهي تخبو شيئا فشيئا وتتضح شيئا فشيئا. كان احمرارها يتجمد قليلا وكان قرصها يتسع ويتسع. وكانت أشعتها قد تناثرت كأنما هي أجنحة من لهيب تحتضن الغيوم. أما الصلة التي بيني وبين الكون فكانت تزداد وجودا كلما أوغلت الشمس في ابتعادها، ولكلما أخذت أصوات القوم

من حولي تخفت شيئا فشيئا... كانت محاريث الجزيرة المقابلة لي قد سكنت، وأغنامها وأبقارها أخذت تعود إلى مذاودها والأشرعة اطمأنت إلى مراسيها، والطيور غابت، ومياه النيل تنعكس فيها أضواء الغروب.

وفي المياه المرتعشة جعلت أبحث عن لوني. كانت ثمة ألوان تنتفض في أعماق السطح المتجعد. أيمكن أن يكون لوني غارقا هنا مع الأسماك والجينات وحشائش الأعماق؟ لا... ولا حتى هنا!

ورفعت عيني... كانت الشمس، مصدر النور، قد اختفت تماما. وكان أملي في العثور على اللون الأحمر الذي أنشده قد أصبح ضئيلا. عبثا وجدته في قرص الشمس حين كان متقدا وحين أخذ يتجمد، وعبثا وجدته في الغيوم الناعمة المخملية حين كانت تسبح كالفراشات خفيفة طائرة وحين أخذت تثقل كلما ازداد اللون الأحمر تعميقا فيها، وعبثا وجدته على سطح المياه المرتعشة ولا في أعماقها الهادئة... أين إذن يمكن أن يكون؟

وفجأة لمحت اللون الأحمر من جديد، كانت ثمة سحب صغيرة متفرقة وممزقة بشدة قد اصطبغت به ناحية الجنوب.

لكنه لم يكن اللون الأحمر الذي أنشده، لم يكن داكنا بالدرجة التي أريدها ولا منطفئا تماما بل كانت هذه الغيوم كأنها بقع من الدم نسيها كاهن على ثوبه الطاهر بعدما ذبح الكفارة..

وبدأ لون الدماء في الجنوب يزداد ثقلا وتعمقا، حتى استحال مع الليل الزاحف إلى لون أسود خالص.

وأخذت تنبعث أمامي صور من الطبيعة الحية، من كل مكان فيها... السيول التي تنحدر ولا تعود تصعد، الزهور التي تقطف ولا تعود تزدهر، الشموس التي تغرب ولا تعود تشرق، والأحباء الذين يذهبون ولا يعودون...

وكان كل شيء قد سكن تماما، فأحسست أنني دخلت عالما جديدا، عالما من الظلام، ليس فيه اتصال النور ولا تجسد الواقع بل خليط من الحلم والظلام. واختفت معاني هذه الصلة التي كانت تقوم بيني وبين الكون.

وأخذت أقترب في بطء من مياه النيل، حتى رأيت خيالي منعكسا فيها، وكانت ثمة نار خافتة تبعث من وراء شراع قريب. كان ظلي المنعكس في المياه أسود، كهذا اللون الذي استحالت إليه غيوم الجنوب الدموية ساعة الغروب.

وكان ظلي يرتعش حتى ما وراء السطح بقليل بغير أن يمس الأعماق، ولم يكن ثمة أمل في رؤية اللون الأحمر من جديد.

كانت الشمس قد اختفت من المكان حولي، لكن وجودي كان قد بدأ يأخذ في نفسي صورة مكانية. وكانت ينابيعه المتقدة والمتجمدة على السواء لا تزال تتركز حول غروبها هي: بين إدبار نور صاخب وهاج وإقبال ظلام رائع طويل. لحظة توتر مهولة يا صديقي وقلق ضخم يضم وجود الواحد منا بارتعاشاته وانتفاضاته...

وكنت أحس الآن أن عمري بعد غروبها يساوي تماما عمري قبل هذا الغروب. رغم أنني كنت أدرك أنه مضى معي نهار كامل ملآن بالنور، كان فيه فجر طاهر بكر غني، وكان فيه ضحى دافئ حي، وكانت فيه ظهيرة وعصر... وكنت أدرك أنه لم يمض على هذا الغروب سوى بضع ساعات، لكن منذ لحظة الغروب هذه، رأيت بدلا من لوني الأحمر الذي أنشده بقع من الدم صبغها السواد أخيرا، ومنذ ارتعش ظلي حتى ما وراء السطح بقليل... منذ هذه اللحظات وأنا أحس أن عمري بعد غروبها أمسى طويلا طوال حياتي فيما قبل هذا الغروب.

وكنت أعلم أنني أوغل نحو منتصف الليل، نحو عمق أعماق الظلمة. ولم أكن أدري هل أخذ عمري يتضاعف بعد الغروب عما عشته أثناء النهار، أم أنه وقف وما عاد يزداد. وأخذت أتساءل: أما كبرت قليلا في هذا الظلام؟ أما أخذ ظلي يزداد عمقا حتى بلغ الأعماق؟ ذلك أن المعاني كانت قد اختلطت في نفسي، واستحال كل شيء أمامي إلى مجرد أشباح،

.... وكنت قد بعدت عن الشاطئ قليلا، فعدت أقترب منه. كان الظلام قد أبعد كل شيء وعزل كل حي وصار كأنه قطع من الفراغ الهائلة. ونظرت إلى ظلي الذي أدوسه بقدمي وهو غارق تحتي يضطرب في الماء، كان الآن أسود تماما.... كان لا يمكن أن يكون سواده أكثر تحديدا ولا أكثر ثباتا من هذا السواد، كأنما كان حقا لونه الأول أحمر كلون بقع الدم فيما بعد الغروب... وكان يكاد الآن أن يمس الأعماق.

ورفعت عيني، فرأيت أنني في الجانب الآخر من الشراع حيث النار الموقدة أخذت تنكمش وتتجمد في بريق الجمرات.

وفجأة، وبغير أن أدري كيف حدث هذا، عثرت على لوني الأحمر المنطفئ يتخلل هذه الجمرات المتقدة في أعماق الظلام!

ولمحت شبحا ينتصب، ثم ينحني على السطح ويغترف من مياه النهر، ثم يصبها فوق الجمرات. وتصاعد مزيج من الدخان والضباب. وكان هذا هو كل ما حدث.

وعندما انطفأ كل شيء، علمت أن غروبها قد بلغ أوج روعته، وأن عمري في الظلام لا يمكن أن يكون مقياسه حياة النور والنهار، بعد الآن.

قفزة إلى الليل

صديقي:

لا، لا تحسب أن ثمة تحولا جديدا حدث الليلة في حياتي.

فما التحولات في حياة الواحد منا إلا امتدادات لخطواته الأولى، فقط نحب أن نخدع أنفسنا بوهم البدء من جديد حتى نستطيع أن نواصل تحركنا بلا انقطاع.

أنا ما شاهدت الغروب الليلة يا صديقي كما تعودت أن أفعل كل أصيل منذ زمن بعيد، حيث كنت هناك أبدأ أعيش دائما ومن جديد تجربة غروبها، بل حدث شيء لم يكن في الحسبان رغم أنني أردته من كل كياني منذ زمن غير قريب! ذلك أنني وجدتني الليلة أتجه عكس طريقي الذي تعودته والذي كان يؤدي بي دائما نحو الغروب، فسرت شطر الجهة التي تكون كل صباح جهة الشروق... ولو أنني ما كنت ألمح الآن فيها غير ظلال العدم.

وكنت أجوس خلال حقول تحتضنها تلال المقطم. فراقبت الجبل وهو يستحيل إلى لون ظله الذي كان يزحف في غير بطء، ويمتد هنا وهناك متسللا إلى الخبايا والكهوف

وإلى كل ما انزوى خجلا من فرحة النهار. وكان الغروب قد رسم للوقائع أشباحها، فأخذت الوقائع تزول والأشباح تتضخم.

وتنبهت ذات لحظة إلى أنني وصلت الآن إلى حقل الورد الذي طالما اختلط عطره بعطرها، وطالما ضمنا خلال ضباب رقيق من كل فجر خرجنا نستقبله معا، نقطف من هنا زهرة ونحيي هناك صبية، ونحن نحمل معنا رؤانا وأحلامنا في غير هم ولا قلق. غير أني كنت الآن أسير لوحدي والغروب قد عبر، فقفزت إلى الليل دفعة واحدة، حيث رأيته كله أمامي، حتى لقد ضل مني الإحساس بالاتجاه، فما عاد من الممكن أن أعرف أين كان الغروب تماما ولا من أية جهة يمكنني توقع مجيء الفجر.

والتقيت بالساقية التي شهدنا معا يوم مولدها، وكيف ركبت أجزاؤها واحدا واحدا. وفيما بعد كنا نمر بها أثناء عودتنا من جولاتنا السعيدة الهانئة، فنشاهدها متحركة أبدا. أما الآن فلأول مرة وحدي، أشهدها ساكنة لا تدور ولا المياه تتدفق بيضاء منها. فجلست فوق أحجارها أحدق في شجيرة شوك جرداء أمامي ألقي تحتها ما يشبه الغراب الميت. أما

شجيرات الحقل فكانت جلها عريانة إلا من بضع أزهار للشتاء بعيدة عني في إحدى الزوايا. لكن لا، لم يكن الليل بلا أنوار.

فمن خلال الشجيرة الجرداء لمحت الأنوار البعيدة وهي تبدو، نورا ينبعث في أثر نور، حتى امتلأ الليل بالمشاعل من كل جانب حولي. بينما تحولت تلال المقطم إلى شبه غيوم مثقلة، هبطت على الأرض حبلى بالرعود والبروق.

ومر أمامي فلاحان، كان أحدهما يقول للآخر في بطء: إن هذا مؤلم... فأتم الآخر: ألا نرى أطفالنا إلا من الليل حتى الليل. ثم أخذا يغيبان مع أصواتهما شيئا فشيئا حتى اختفيا مع الواقع. وغدا الليل كأنه قطعة من الحياة جمدها في المكان فنان من البشر بعد ما أودعها الإرادة والتحفز.

وفجأة خلق الليل حركته، فاكتست شجيرات الحديقة وتفتحت أزهارها كأنما قفزت بدورها هي الأخرى إلى الليل، لكن بلا عطر. بينما الشجيرة الجرداء بدأت تتحرك...

عندما كنت أحب كنت أحس حقيقة التبلور في هذا الحب، أما الآن فقد تسرب الخوف إلى قلبي، ومع هذا الخوف أحسست التشتت.

وبدأت الأنوار - التي كنت ألمحها من خلال شجيرة الشوك الدكناء - تتراقص أمام عيني، فحاولت الفرار، حين وجدتني مسمرا إلى الساقية, وأنا أسمعها من ورائي قد أخذت تدور بغير أن تتدفق منها مياه.

واندفع يمر أمامي موكب من الأشباح: قامات سود يمر بداخلها هواء لطيف، كأنها شخصيات تآكل مضمونها مع جانب النسيان من التاريخ، أو كأنما هي موضوعات ضاعت ذواتها بين ذواتنا، وكان كل منهم يحمل مشعلا... وعلى ضوء المشاعل رأيت بعضهم يلبس تيجانا وبعضهم عريان، ما بين رجال ونساء وأطفال، من كل شعوب العالم ومن كل أزمنة التاريخ. ينبثقون من العدم ويغيبون في العدم وهم ينشدون. وكان نشيدهم خليطا من الضحك والعويل.

وفجأة تخلصت من أحجار الساقية، واستطعت أن أقف وأنا أحس وهم التبلور، فرفعت رأسي ومددت عنقي أبحث أين يمكن أن تكون هي بين هذا الموكب. وكنت أعرف أن مشعلها لابد وأن يكون أكثر المشاعل توهجا وأن نشيدها سيكون بالضرورة أزحم الأناشيد بالضحك والعويل. وكان هذا عملا شاقا للغاية علي، فلم يكن ثمة موكب للغزاة وآخر

للمنكسرين وثالث للمجهولين ورابع للمحبين وخامس للمحبوبين... إذن لربما سهل علي أن أعرف أين يمكن أن تكون. لكنه استحال أن يمروا أمامي في مثل هذه المواكب التي قسمها عقلي، فأصبح من الصعب أن أعرف أين تكون.

وكنت قد جبت اليوم شوارع المدينة ومنحنياتها متوهما أنني سأجدها في آن ما وعند مكان ما، رغم أنني كنت أفهم أنها رحلت عن مدينتنا منذ زمان بعيد وأنها لن تنوي أن تعود. لهذا بدا لي أنه من حقي أن أؤمن أخيرا أنها هنا في هذا الموكب، حيث ينبثق الوجود ما بين عدم وعدم.... فاندفعت أريد اقتحام الموكب، حين أدركت أنني أحيا في الوهم، وأنني وحيد، والليل حولي، وقد ضاع مني الإحساس بالاتجاه فعاد إلي التشتت من جديد، وتراخت ركبتاي، وعدت أجلس على أحجار الساقية.

...... ولم يكن الليل بلا نيران أيضا يا صديقي،

فقد أخذت الورود التي ازدهرت تذوي غير تاركة وراءها عطرا تماما كلحظة تفتحها.

وأخذت الساقية تهدأ شيئا فشيئا. وكانت ثمة أشياء تقفز إلى العدم من حولي، بينما اضطرب سير الموكب فاختلطت

المشاعل بالأشباح وأخذ النشيد يستحيل إلى صوت عاصفة... حتى اندلع حريق كبير، واحتواني توهج اللهب والدخان - بغير أن يمساني - في دائرته التي كانت تتسع حتى لتغيب أطرافها في الليل المنتشر.

واختلطت صفوف الأشباح وهي تئن وتحترق، وقد تشبث كل اثنين منهم ببعضهما، بينما اندلع الحريق يزحف، وصوت العاصفة يعول، وحتى اضطرب الجبل كله بالرعود والبروق، واستحال إلى كتل من اللهب والدخان.

وأخذ الحريق يبتعد، وصوت العاصفة يبتعد، حتى تلاشى كل شيء عندما وقفت الساقية وما عادت تدور، بينما تلال المقطم بدت بسوادها القاتم عما حولها، وبصخورها المبعثرة: كأنما هي أكوام تجمعت من رماد هذا الحريق الهائل وقد تناثرت فوقه أشلاء أكثر سوادا هنا وهناك. فلقد كان الليل خصبا بدرجات من السواد لا نهاية لها.

ولم تبق سوى بعض تحققات هنا وهناك، حيث تلاقت بضع مدن وبضع قرى، تتسابق أنوارها في التلألؤ والارتفاع كأنها هي زحمة من الأحياء كانت تشهد حفلا أو حدثا ما... وغدا الليل كأنه حب ضاع موضوعه.

وكان الغراب الميت لا يزال ملقى، أما شجيرة الشوك فكانت قد احترقت دليلا على صدق توهمي!

فانطلقت أسير، بلا قامة ولا عمر، كي أواجه الليل أمامي أينما اتجهت.

مجد في غسق

.... وعدت إلى الجبل المقدس، وتوقع الدهشة والغربة يملؤني توجسا، فقد اخترت السير في طريق جديدة لم تدسها قدماي من قبل حتى لكأن أحدا لم يطرقها، لكنني كنت أكثر دهشة حين رأيتني لا أجد مشقة في التعرف على منحنيات الطريق وشعابه وامتداداته... حتى وصلت إلى سفح كأنما آلف منظره، رغم أنه لا يمكن أن يكون أحد - لا أنا ولا غيري - قد تطلع منه إلى القمة أو ارتاده من قبل. أما الظلام فكان ثقيلا كأنما لابد أن يتوقع الحي أن تخرج منه أشباح وأرواح منه فوقفت أنتظر...

ورأيتك تقبلين من ناحية الغروب، تنهزم العتمة أمامك بغير أن تبدو أضواء، وكان جسدك عريانا، وخطواتك متزنة، وثمة بحيرة من الدم إلى جانبك، كبيرة ومتسعة جدا، قفزت إليها بجسدك العريان تغتسلين مما علق بك من التراب. فلما اغتسلت أسرعت إلى الأرض تقبضين حفنة من الرمال والتراب وتنثريها على سطح البحيرة، بينما كانت ثمة دوائر في البحيرة تنداح من حيث خرجت ثم تتسع وتتسع

حتى تغيب، فعدت تنثرين التراب حتى استحال المكان إلى وحل غارق في الدم.

ولما أحسست بعض الطمأنينة رأيتك تتحركين، في بطء وتردد أول الأمر، لكن سرعان ما أخذت خطوتك تتلاحق حتى استحالت إلى رقصة بلا إيقاع ولا انتظام. فيثور الغبار، وأصوات صدام خافتة تنبعث من بين حصى المكان، يتهدل شعرك وتهتز أطراف أطرافك ودوائر الظلام تنهزم... كأنما أنت ساحر قد أغلق لتوه باب الجحيم. وحين وقفت فوق القمة تملئين رئتيك، كانت العتمة قد زالت لكن لم تكن ثمة أضواء، فسبح الوجود في الغسق.

وأخذ يفد على مكان البحيرة أفراد عراة مثلك، كانوا يقبلون من كل ناحية بعد ما انتهى النهار وحل بهم التعب وأنت واقفة ترقبين. حتى إذا ما اجتمع شملهم وصاروا جمعا غفيرا تسري فيهم همهمات كالمياه، وقفت بينهم فبدو أمامك كأنهم حشد من الظلال، حتى رأوك فصمت الجميع...

وبدأ صوتك في الغسق عاليا ومجلجلا حتى لكأنك وحدك، وعيونهم جميعا نحوك، وشعرك الأسود المسترسل إلى ما بعد الرقبة بقليل يثب على الكتفين العاريتين. كانت

شفتاك تتحركان في تلاحق وبغير انتظام، ووجهك يلتمع ببريق الطموح والثورة، والثنيات التي كانت ترتسم حول فمك وعينيك من حين لآخر وسريعا تزول ألمح فيها ما عبرت عنه ذات يوم من حب وقلق وخطر وألم. ويدك اليمنى التي كنت تشيرين بسباتها حينا وبأصابعها الخمس حينا آخر، لا تزال تحمل آثار ما حملت من معاول وفئوس كنت في المدينة تحطمين بها أصنام أجيال وقرون. وبشرتك الممتزجة بأضواء الغسق ناعمة جدا. وقدماك راسختان في الأرض مشدودتان إلى فخذيك المستديرتين وقامتك الممشوقة الممتلئة، يمناهما ترتفع قليلا من حين لآخر ثم تعودين تضربين بها الأرض في اتساق مع حركة اليد وتعبير في الوجه وصرخة داوية. فيرتج ردفك قليلا، وثدياك لاصقان بصدرك الخمري متشبثان به كأنما لن تبرحاه إلى الآخر. وصوتك لا يزال مجلجلا أسمع في أصداء جرسه ما قلته لي ذات يوم بخفوت شديد: أحبك منذ رأيتك. وضوء الغسق ينبعث من شعرك ومن عينيك ومن بشرتك العارية الصافية الدفيئة كلها.

كان وجهك رائعا ونبيلا، وأنت تلمحين أمامك عيونا ظامئة ورءوسا متطلعة فيزداد إيمانك وجمالك، حتى استحلت أمامهم إلى شعر يتهدل وأطراف تتحرك وصوت ساحر مغمور في هالة من نور حالم مقدس. وآمنوا جميعهم أنك تستطيعين أن تخطبي فيهم ساعات بل أياما وهذه الثورة الجبارة من الكلمات تنطلق من فمك. ولم تعودي أمامهم شيئا إنسانيا بل بطولة ومجدا.

لكن لم يكن هذا هو كل شيء، فقد كنت تحسين أن ثمة شيئا ينتشر الآن في أعماقك ويسيطر عليك قليلا قليلا حتى ليوجه كلماتك. وأبرق في عينيك لحظة حلم منسي، حين اندفعت تقولين: ليس لدينا وقت للتعلق بأوهام الماضي... فدوى الجميع بالتصفيق، ذلك أن كلا منهم يريد التخلص من أوهام ماضية، فعدت تصيحين: ولن يكون أمامكم وقت للبكاء على حب فأمامنا كفاح مرير. ثم ارتفع صياحك عن ذي قبل وأنت تلمحين عريك وعريهم وتهتفين: ليس لدينا وقت للتعلق بالأباطيل فنحن نريد خبزنا وكساءنا. بينما أخذ الجميع يصفقون وأنت تبحثين عني عساني أكون انتشرت بينهم: هل أسمعك، هل أراك، أما شهدت مجدك هذا كله في الغسق؟

ولقد كنت أدرك أنني أراك في هذا الموقف لأول مرة، ومع هذا فقد كنت أحس أنني آلفه كما يألف الظل النور، كنت قد رأيته من قبل وأنت لا تزالين رغبة في فؤادي، ثم رأيته فيك حين قابلتك وكنت لا تزالين صمتا مستبهما، وهأنذا أراه اليوم وأنت فوق القمة.

أما أنانيتي القاسية المشبثة بك فكانت تقول: إنها تحبك اليوم أعنف من أي وقت مضى. فقد كانت تخطبهم كلمات لقنتها أصولها. لقد علمتها كيف تهرب من الماضي أما أنت فلم تتعلم.

وعدت أحاول الاقتراب منك، حين لاحظت الوجود ينحدر نحو العدم في كل خطوة أخطوها، حتى إذا ما خيل إلي أنك لمحتني رأيتك تشحبين... ومن قبل أنا الذي اقتربت وعرفت ضعفك، ورأيت اليوم مجدك - كما رآه الآخرون - من بعيد. فعلمت أنني لو عدت أقترب فسيضؤل كل شيء حتى لتحدث الخيبة الهائلة مرة أخرى من جديد. لهذا ظللت في مكاني واقفا... ومن قبل كنت قد أوصيتك أن تقتربي دائما، دائما مهما يكن المصير!

وكانت الجموع تنصرف، واحدا في إثر واحد، حتى بقيت وحدك تفكرين... وكنت فخورة لأنك تألمت ذات يوم لتألمي!

ورأيتك ترفعين عينيك حيث قام نصب تقرأين عليه هذه الكلمات: مات في المساء الأخير من... وخيل إليك أنك تسمعين أصوات جماهير وهدير مياه. فأدرت عينيك نحو بحيرة الدم ودوائرها المتجمدة... وخيل إليك أن الأرض ستنشق فتفيض البحيرة وتغرق المكان، ولم تحبي كثيرا هذا النوع من التوهم والجلوس وحدك، وذكرت هؤلاء العراة الذين سيفدون على مكان البحيرة والدم، عند حلول كل غسق، تخطبين فيهم عن التخلص من الماضي وأوهام الماضي وعن الكفاح والانتصار حتى يدوي الوجود لك بالتصفيق.

ولمحت آثار أقدامهم فذهبت نحوهم تهرولين دون أن تلمحيني... فقد كنت تلاشيت في الغسق.

طفـل

كنت في طريقي إلى المدينة العظيمة... كان طريقي هادئا مظلما وباردا. وهناك، من بعيد، كانت المدينة وسط الظلام بأنوارها المتلألئة ومنازلها الشاهقة كغانية خرجت في حلكة الظلام متبرجة بحليها وقلائدها تنتظر عشيقها.

وذكرت يوم كنت قد صممت على أن أترك عزلتي وأبدأ رحيلي نحوك، وفي الطريق إليك أدركت أنني قد أعود ملآن بعطرك، مغمورا بنور عينيك، كما أنني قد أعود فارغا، لكنني كنت قد صممت على أن أترك عزلتي، فواصلت رحيلي... حتى عدت فارغا.

وهكذا ظللت أسير حتى أشرفت على المدينة، فلمحت على جانبي الأيسر نصب قبور مبعثرة، أما على جانبي الأيمن فقد كان النيل لا يزال جاريا بزرقته الداكنة. ولم تكن ثمة نجوم في السماء، ولم تكن ثمة أصوات على الأرض، ولا حتى نقيق الضفادع! كان كل شيء هادئا مظلما وباردا، وكنت أعلم أن أهل المدينة يشيعون هنا كل يوم عشرات من أحبائهم وأصدقائهم، ومن أخواتهم وآبائهم، ثم لا يلبثون أن

يعودوا إلى المدينة كي ينسوا، ولا يلبثون أن يصنعوا لهم أحباء من جديد وأصدقاء من جديد.

وأخذت تنبعث في نفسي قصصا كنت قد سمعتها في طفولتي عن كائنات من غير الناس لم يستطيعوا أن يغادروا مدينة الأموات بعد ما رقد أصدقاؤهم من الناس فيها هناك، فظلوا يحومون حول قبورهم حتى قتلهم الهزل والإخلاص.

وبدأ العدم يتكشف أمامي شيئا فشيئا، حتى أزعجتني هذه الفكرة، أن الحياة واحدة، واحدة فقط، وأننا افترقنا ولن نعود نوجد مرة أخرى، وبذلك لن نلتقي أبدا. سننتهي ذات يوم، سنصبح جثثا صامتة وعظاما نخرة ونسيانا، هل تصدقين؟ وكانت اللانهاية، اللانهاية الهادئة المظلمة الباردة، قد أحسستها الآن واضحة في نفسي، حتى شعرت أمامها أنني لست سوى شيء... صغير صغير.

وكانت المدينة قد بدأت تتضح معالمها، فمررت بأكواخ الضواحي حيث اشتعلت جذوات من النار، فأحسست الحياة قد بدأت تدب...

وأخذت أدلف من طريق إلى طريق. لم أكن أعرف إلى أين أسير، لكنني كنت أحس طريقي... كنت ذاهبا إلى قلب المدينة. كنت أريد أن أفر من طيفك الهادئ المظلم البارد،

وقد كانت المدينة بمنازلها الشاهقة ومصانعها النابضة وجذوتها المشتعلة تجذبني نحوها في عنف... مررت بأكواخ وقصور، وسمعت في ظلمة الليل أصوات عويل وأصوات تهليل، ولمحت من حين لآخر مشردين ينامون على أرصفة المدينة العظيمة في كآبة وعزلة. كنت أتجه في سرعة نحو قلب المدينة. حيث الناس يتزاحمون ويتكالبون. كانت الفتيات تعبرن متبرجات متعطرات مسرعات أمام الرجال، وكان الرجال يحدقون في نهم وشغف إلى الفتيات، ثم لا يلبث الجميع أن يواصلوا بيعهم وشراءهم. كانت المدينة عظيمة، عظيمة جدا، حتى فرحت بهذه الحياة النابضة، فأخذت أغني وأرقص كلما اقتربت من زاوية في طريق واطمأننت إلى أن أحدا لن يراني... كطفل صغير بريء!

... وأخيرا تركت الزحمة والغرباء لأقصد طريقا أعرفه جيدا، كنت في طريقي إلى منزلك. لم أكن أدري لماذا أتجه إلى هناك، وكل شيء مضى وقد عدت فارغا، غير أنني كنت أتجه إلى هناك! فقط كنت أعلم أن منزلك راقد في ضاحية من ضواحي المدينة العظيمة، بعيدا عن الصخب، وبعيدا عن النور قليلا. وكان رذاذ نوفمبر قد بدأ يتساقط، بينما أخذت تزحم عقلي الآن أفكار عجيبة لا يمكن أن تخطر

على إنسان، أفكار عجيبة مدهشة ومرهقة أحيانا، تنبعث من كهوف سحرية ومغاور رهيبة خرافية. وكنت أعجب كيف يمكن أن يستأثر بنا إنسان واحد، إنسان واحد فقط، يستوعب أفراحنا وأحزاننا وكل خلجاتنا تماما كما يستوعبنا أي فعل مخاص! حتى إنه ليترك آثاره في حركاتنا وتعبيراتنا: في طريقة خطونا أو في رنين أصواتنا حين نضحك. وكيف يحدث لنا فجأة أن نجد بين أيدينا وجها ميتا نقلبه، وأن نجرؤ على أن ننبش أكفانا وقبورا كان أصحابها قد ماتوا من حياتنا منذ زمن بعيد. وكيف نغوص من حين لآخر رغم أنوفنا بين كثافات ماضينا المظلم المروع حيث ترقد ذكرياتنا العزيزة وجراحنا المقدسة، وهناك... نهز الموتى علهم أن يستيقظوا ويعيشوا معنا بضع لحظات أخريات.

.... وكان البرد شديدا، والناس قد تعبوا من طول صخبهم وضجيجهم ، فأخذوا يطفئون أنوارهم ويأوون إلى مضاجعهم، وهكذا بدأت المدينة العظيمة تنام. بينما الأفكار العجيبة المدهشة كانت قد بدأت تفقد أسطوريتها كلما أخذت أقترب من منزلك.

وكان صدى خطواتي مسموعا بوضوح في عرض الطريق، بينما أخذت خفقات قلبي تسرع وتتلاحق في عنف،

وبدأ كل شيء يرتجف ويضطرب أمامي: الماضي والحاضر والمستقبل، وطريقي أيضا، كأنما أنا مقبل على تجربة حبي من جديد... حتى إذا ما مررت بمنزلك، رأيتك - ويا للصدفة العجيبة - واقفة في ثوبك الأحمر الداكن تودعين صديقتين. وكان المنزل وأنواره يلقيان أضواء وظلالا على قسمات وجهك الناعم الحلو وعلى شعرك المسترسل وأنا أسمعك تضحكين، الضحكة نفسها التي طالما سمعتها منك حتى ألفتها، أتذكرين؟ فأحسست بأن الزمان يتضاغط، يتضاغط في سرعة عجيبة، السنين في أشهر والأشهر في أيام والأيام في لحظات، في لحظة واحدة جبارة هائلة، لحظة عبوري أمامك وأنت تضحكين.

هنا لم تكن ثمة لا نهاية ولا ظلام، ولا ثمة زحمة ولا غرباء، رغم هذا فقد كنت أحس أمام هذه النهاية الواضحة الباترة أنني طفل، لكن ليس كالأطفال...

كنت أحس أنني طفل وحيد، ما فكرت قبل أن تفطميه، أنه سيعيش بلا أحضان تحميه، ولا أثداء تغذيه.

القسم السادس

- ١ -

عندما يستحيل الحلم إلى جنون،

ينتصب تمثال أسود داخل الروح، وتبرز فجأة شطئان بلورية، تطوف بها جماجم الأحياء، وتمتد تحتها - في انحدار عنيف - بحار متسعة من الجليد.

وتستيقظ العطور والضحكات.

وتتفتح الكهوف الخرافية بعد ما تكون الكنوز قد ضاعت، فتزدحم الغابات بنهود من نحاس، وتتصاب الشفاه وهي تبتسم، وتسمع أصوات القبل آتية خلال النعاس.

ويقف ظل أمام ظل،

وتغادر الفلول الميدان ـ ويسمع في السراديب السحرية قرع الطبول، وتبدأ معركة بين الأشلاء، من أجل الحصول على ذراع أو ساق.

ويحترق الهمس في الهدير،

وتتداح دوائر في المياه، من مكان غير معروف، قاصدة في سفرها المرتعش المعتوه، التقاء اللانهاية بالعدم.

- ٢ -

مضى يعدو مجنونا.

في طريقه إلى الحلم الذي ضاع.

وتحته هوات غير منظورة.

ظلماتها المفزعة تغريه بالارتماء.

وبدت من خلال القضبان.

وجوه من الشمع.

وظلال من الأبنوس.

تتحرك في الفراغ.

وحدقت عيونه الزجاجية.

وتقلصت شفتاه.

ما أرهب الماضي بغير ابتسامات.

ثم مضى يحطم الحلم الذي ضاع.

- ٣ -

"هذا المساء أحس سعادة عميقة تشيع في نفسي، وعندما تشيع في نفسي السعادة أدرك أنني في حالة حب "

فجأة بين الخراب،

تنبثق الألوان الخضراء في كل مكان،

وتتلاشى الأطلال التي كانت قد ضخمتها الظلام والأوهام.

احذر لئلا تكون المعجزة وهما من هاته الأوهام،
وارقب بنفسك الظلال وهي تستحيل إلى أضواء،
والمس بجسدك الأضواء والألوان.
ثم ابدأ رقصك العربيد النشوان،
مع الأضواء، مع الألوان، مع الأنغام،
فقد التقت اللانهاية بالعدم.

القسم السابع

لحن جنائزي

" فجأة تجد نفسك بحيث لا تستطيع الاقتراب التام "
" من الآخر ولا الابتعاد عنه، ومن هذا الترجـح "
" بين محاولة للاقتراب لـم تتم، ومحاولة للابتعاد"
" لن تتم، ينبثق يأس لا نهائـي، تولد لحظة مـن"
" لحظات التوتر الإنساني المجنون. فينبعث لحـن"
" جنائزي يعلو شيئا فشيئا كلما أوغل فـي الظلمة "
" المساء الأخير..."

- ١ -

بين الرغبة والتحقيق يسقط الواقع، وبين الرغبة والمعرفة يقوم الخلق.

الخلق - كالحب - هو القمة التي عندها تتعانق الحرية المطلقة والضرورة المطلقة.

ما أروع آلام المبدع الذي يحاول أن يبدع من مادة لا يؤمن بها.

إن الخلق إيجاد من الذات، وليس إيجادا من العدم، إن عملية الإبداع في جوهرها عملية فصل عن الذات، لهذا يجب

أن تتحمل آلام الأمومة، فإن كل مطالبة منا بأن نملك ما نبدع مطالبة أنانية شد ما تكون منبعا ضخما لآلام أكثر هولا.

أحيانا ما نخلق صورا من أنفسنا، لكن أحيانا ما نحب أن نخلق ما هو خير من أنفسنا. وهنا يؤلمنا النجاح، ونعود إلى إنسانيتنا التي نسيناها حين كنا نخلق ما لم نستطع أن نكونه، ذلك عندما نرى مخلوقنا قد بدأ يتفوق حقا علينا.

تلك هي حركة الطبيعة التي لا تخطئ: عندما يتم تفوق الجيل الجديد، يكون الجيل الذي خلقه قد مات.

كل مبدع إما أن يعد نفسه لأن يستعبده ما أبدع، وإما أن يظل قادرا على تحطيمه، فيحتفظ بقدرته الإبداعية، لكن هذه القدرة الدائمة على تحطيم ما أبدع هي السبب الأصيل لآلام كل مبدع.

لهذا يتألم كل من يمارس فعل الإبداع من أجل أن يبدع من جديد يجب أن يكون قد تجاوز ما أبدعه من قبل.

حين يتحول المبدع إلى عاشق، فمعنى هذا أنه منح مخلوقه وجودا مستقلا من أجل أن يعشقه. لكن المخلوق - الذي ما عاد جزءا من ذات الخالق - لا يبادل مبدعه الحب كما قد يتبادر إلى الذهن. بل يرى في الثورة عليه أوضح

طريقة لإعلان وجوده الذي كان يفنى فيه. وما أهول مصير كل مبدع يتحول إلى عاشق.

التصوف هو المجهود الذي يبذله المخلوق كي يرتفع من مرتبة العبادة إلى مرتبة العشق من خالقه.

لسنا نخطئ حين نقول إن التلميذ الذي يحاول أن يعشق أستاذه، إنما يقوم بمحاولة تصوفية.

- ٢ -

قد يظل شخص يقف من الآخر موقف الأستاذية، حتى حين تصبح العلاقة التي بينهما هي علاقة العداء.

تلك هي التضحية التي يجب أن يقدمها كل مبدع ثمنا لإبداعه. أن يحب بغير أن يشترط حبا مقابلا. وهذا هو الفرق بين حب الخالق وحب المخلوق للمخلوق، بين حب الأم وحب الابن لأخيه.

- ٣ -

إن مجرد الوهم بأن الآخر يبادلنا نفس الحب كاف لأن يبرر لنا اندفاعنا نحوه، كالنوتي: قبل أن يصل إلى الشاطئ يرمي بمرساته عليه فيحدد اتجاهه ويزداد اندفاعه، وما أهول المصير إذا لم تكن المرساة قد غرزت في شيء ما.

إننا في حاجة إلى أن نحدق في جراحنا ثم نضغط عليها في جرأة، سنتألم أكثر أول الأمر، لكننا سنحس أخيرا بلذة ناعمة.

من السهل حقا، لكن من المؤلم أيضا، أن تكون واحدا من هؤلاء الذين لابد من وجودهم كي يضعوا تاج الشوك فوق رأس البطل من أجل أن يتوهج وجهه، فيضيء الطريق أمام الأجيال المقبلة.

حين يصدمنا آخر في أعمق عواطفنا، كثيرا ما نحس النبل والقداسة حين نريه أننا لا نزال نمعن في حبه، وأخشى أن تكون تلك طريقة للانتقام، بها نشعره أننا خير منه.

أننا بالإخلاص نحيا ونتمتع ونتألم.

كثيرا ما نسيء فهمنا إخلاص الآخرين، حين نحسب الإخلاص علاقة بين الإنسان وآخر، بينما هو - كالفشل - لا يعدو أن يكون علاقة بين الإنسان ونفسه.

تلك هي الأنانية المقرونة بضعفنا العاطفي: نتمنى الإنسان الذي نحبه ألا يشغل إلا بنا في فرحه أو حتى في اضطرابه طالما كان اضطرابه هذا معناه تعلقه بنا.

كثيرا ما يكون طلب السعادة للإنسان الذي أخفقنا في الحصول عليه نوعا من الاستسلام، حيث هو سعيد مع غيرنا وسنشقي أنفسنا إذا نحن تألمنا لسعادته التي كنا نتوهمها غير منفصلة عنا. أما إذا ترامى إلينا نبأ تألمه فإن غبطتنا هنا ستكون أكثر إخلاصا، حيث نرى في ذلك العقاب الطبيعي لانفصاله عنا. إنها سعادة المنتقم، فنحن الناس نجد لذة في الانتقام قد نضحي في سبيلها بكل شيء حتى سعادة من نحبهم.

الناس يسمون حين يحبون، وينحطون حين يكرهون، وكل من حاول أن يجعل الكره يسمو به يعرف قسوة هذه المحاولة.

ما أخطرنا عندما نزمع أن نبدد أحزاننا.

في كل مراحل التاريخ علمتنا دروس الانتقام العبقري أنه لا يتجه نحو قتل الغير، بل نحو إحياء الذات وإنمائها، حيث تظل المسافة هنا أيضا هي المسافة بين الحي والميت.

ليس الكره نقيض الحب، بل هو - كالحب - درجة من درجات الاهتمام بالآخر، إن عدم الاكتراث هو نقيض الحب ونقيض الكرة بحق.

أحيانا ما نكون في حاجة إلى أن نتعلم كيف نحب نفوسنا.

- ٥ -

أحيانا ما يصبح التذكر عملية استرقاقية بليدة مزعجة.

في حياتنا الخاصة لا يمتاز الواحد عن الآخر أمامنا بالذكاء أو الجمال أو المال، فهذه ليست سوى مقولات عامة نصنف الناس تحتها لكي يسهل تعرفنا عليهم، لكن الجميع يظلمون أمامنا سواء من حيث أنهم ينتمون إلى عالم الآخرين. حتى تخلق الذكرى تاريخها بيننا وبينهم. إن الذكرى، وما تحمله معها من جمال وآلام، هي وحدها التي تميز بحق هذا الإنسان في حياتنا من دون الباقين.

إننا لا نستطيع أن نجعل من ماضينا مجرد ذكريات ومعان، بل نحب دائما أن نجسده في أشياء مادية: في صور أو خطابات أو خصلة من الشعر أو في عيد من الأعياد. فالأعياد، ورؤية الأشياء المادية تحيل الماضي أمامنا إلى حاضر وكأقرب ما يكون إلى الحياة الواقعية، وتؤكد لنا دائما أن ذكرياتنا ليست من اختراعنا، بل هاهو ذا الدليل: هاهي ذي صورتها، هاهي ذي خطاباتها، هاهي ذي خصلة شعرها، أو هو ذا يوم لقائنا وذا يوم انفصالنا.

ما أبشع أن يقفز الماضي، يجب أن نعيش في طرق جديدة باستمرار حتى إذا حدث أن عدنا إلى أماكننا القديمة ذات مرة اختلجت نفوسنا باكتشاف هذه الغربة التي أصبحت بيننا وبينه، بهذا البعد الذي يقف بيننا وبين ماضينا. إن هذه الغربة، هذا البعد، هو الإحساس الجديد هنا الذي لم نعرفه في ماضينا.

إننا قد نستطيع أن ننسى مع الزمن هؤلاء الأصدقاء الذين ماتوا وضمهم القبر، لكننا لا ننسى أبدا هؤلاء الأحياء الذين اصطنعنا موتهم في قلوبنا. إن مجرد الفكرة بأنهم أحياء وأن تحركهم اليوم متأثر بلقائنا الماضي، وأنهم يذكروننا في

لحظات مثلما نذكرهم، لكفيل بأن يبعث صورتهم أمامنا حية ومتجددة.

الحب كالليل، كلما أردنا أن نفر منه ازددنا توغلا فيه.

- ٦ -

كثيرا ما نحب أن نؤلم الآخرين، بأن نصور لهم مقدار ما سببوا لنا من ألم.

حين نتبرم بمدينتنا، بوضعنا المستقر، نبحث عن مكان آخر، فيشيرون إلينا بطريق يبدو أنها تؤدي إلى السعادة، فنسرع حاملين معنا كل ما لدينا من آمال وأحلام، ونظل نسير ونسير حتى نوغل في الطريق... لكن الطريق يطول، وعند كل شجرة يهتف بنا هاتف أن السعادة وراء هذا المنحنى، بعد ذلك التل... فنعبر المنحنى، ونرتقي التل، لكننا لا نعثر إلا على امتداد الطريق.

من طبائعنا نحن الناس أن أخطاءنا هي آخر ما يؤلمنا، إنما نتألم حقا حين نذكر إهانات الآخرين لنا، لأنه إذا كان لنا

أن نتألم فلنتألم كشهداء لا كقوم أتاحوا لغيرهم أن يتمتعوا بلذة الاستشهاد.

الألم نوعان: ألم نُعانيه حين نريد أن نحقق أملا لنا، وكثيرون يستطيعون تقبل هذا النوع من الألم لأنهم يجدون في آمالهم ما يبرر لهم تألمهم. لكن هناك ألما أعنف وأعمق، ذلك الذي نُعانيه حين نتألم بلا أمل، وأغلب الناس لا تعاني هذا النوع إلا كحالة امتداد تخمد مع الزمن: أما القليلون فيجعلون منه لحظة حاسمة، إما أن يقضوا على أنفسهم إلى الأبد، وإما أن يصبح لحن المعجزة في حياتهم.

من المزعج أن يكون عليك أن تعيش باستمرار فيما يحياه الناس لحظة واحدة، حقا إنها صورة رائعة، لكن من المرهق أن تكون أنت الإنسان المختار لهذه الصورة. من هنا يتألم البطل، لأن بطولته تتمثل في أنه استطاع أن يعطينا مثالا واضحا ضخما لجانب من جوانبنا الإنسانية العديدة، لكن على حساب جوانبه الأخرى.

وإذا أردنا أن نحيا الحياة الهادئة فيجب أن نتفه في نظر الآخرين حيث لا يعودون يطالبوننا بأكثر مما نستطيع، إذ أن العظماء والعباقرة هم الذين يطالبون دائما بأكثر مما يملكون.

تلك هي معجزة الإنسان، في قدرته أن يتحمل وطأة اللحظة التي يتصور أن آلامه ستنبع منها مدى خمسين أو ستين عاما مقبلة.

الدموع.... أرق اعترافاتنا.

- ٧ -

قد يكون شغفنا بمن نحب فيه معنى من معاني الاهتمام بالآخر، أما التألم لفقده فليس اهتماما بآخر كما نحب أن نتوهم، بل هو إغراق في التفكير في أنفسنا.

الويل لمن ربط مصيره بمصير إنسان آخر، بحيث إذا انفصل عنه هذا الآخر، لم يستطع هو أن ينفصل عنه.

عند الفراق يحرص المحبون أن يجعلوا لحظات وداعهم رقيقة هادئة، فهي آخر ما تذكرهم بحبهم، ولأن لون هذه اللحظات يصبغ كل العلاقة الماضية ويمتد على كل ما كانوا قد كونوه من ذكريات وأحلام. والويل لمن كانت هذه اللحظة في حياته لحظة توحش وانتقام.

عندما كنت طفلا كنت أحيانا ما أشاهد جارا صغيرا لي يلهو بدودة من ديدان الحرير، فيدوس على جزء من بطنها

حتى تنفجر دماؤها ثم يرقبها تتحرك حاملة معها هذا الجزء المشوه. وعندما كبرت علمت أننا قد نشبه هذه الدودة، حين نجر وراءنا في ألم هائل ماضيا، كنا قد أذنا لآخر أن يعبث به.

كثيرا ما نشبه ذلك الجندي الذي يصاب أثناء المعركة بجرح خطير، لكننا لا نحس ألما لأننا مشغولون بدفع ألم أكبر، حتى إذا انجلت المعركة نظرنا فرأينا خطورة الجرح الذي أصابنا.

- ٨ -

الروح حزينة، لأن الرغبة أعنف من الجسد.

اللحظة التي فيها يصبح الإخلاص عنصرا جوهريا، هي اللحظة التي فيها تتحقق المعجزة التي هي فوق طاقة الكائن البشري والتي لا تخضع لفهمه العام.

الحلم هو الذي يدفع الناس أن يضيفوا أعدادا إلى اللانهاية أملا في الحصول على نهاية.

لكم من مرة نأمل في آخر أن يحمل عنا آلامنا، فعدنا من عنده ونحن أكثر تألما، ومع ذلك فنحن نتناسى ونلقي بأنفسنا مرة أخرى، فالشبكة لن تخرج فارغة على أية حال.

إن الفاجعة تكاد تكون دائما محور القصة أو التجربة، أما الفرح فهو وحده النهاية الشرعية.

ونحن نستطيع أن نضع معالم واضحة لما نحلم به من أجل أن نصل إلى السعادة، وبعد ذلك تضيع منا معالم الحلم بين ضباب نشوان.

وحالة الخلو من الألم يمكن أن نسميها بالطمأنينة، أما الانتصار على الألم فهو وحده الفرح الحقيقي العميق.

والألم نوعان: ألم نعانيه من أجل الفقد، يستمد وجوده من الماضي، ويكاد يكون دفاعا آليا عن النفس، مهما بلغ من الخصوبة والعنف فهو شكوى وتبرير واتهام. وألم نعانيه من أجل الحصول، يستمد وجوده دائما من اللحظة المقبلة، وهذا الألم بذل إرادي من النفس، فهو جهد ولباقة وخلق.

إن الجميل يحافظ على نفسه أينما وجد: في الحجر الجامد أو في السيمفونية الرائعة أو في القلوب أو في الذكريات.

القسم الثامن

بين الحلم والتجربة

مساء ٩ من سبتمبر عام ١٩٤٥

هذا هو موقف كيركجورد من إبراهيم، موقف الشاعر من البطل، وضرورة كل منهما للآخر. فالشاعر يظل ينتظر حتى يقبل البطل فيبدأ أغانيه حول موضوع يكون الغناء ضرورة له، والبطل في حاجة إلى الشاعر كضرورة من ضرورات بطولته.

وهنا يربض الفارق العميق بين موقف الشاعر وموقف البطل. فموقف الشاعر موقف تعبيري فقط قائم على الإعجاب أما موقف البطل فهو موقف الفعل الخالص القائم على الإيمان، إن الفعل مرتبط بالإيمان والبطل هو وحده رجل الإيمان، وكل من يؤمن فقد استحال إلى بطل.

إن الشاعر لا يستطيع أن يكون البطل لأن موقفه كشاعر بإزاء البطل ناتج عن الإعجاب الذي هو - بمعنى أدق - الإحساس بأن آخر يفعل ما لا يستطيع هو أن يفعله. كذلك كان موقف كيركجورد من إبراهيم. فإذا عرفنا أن

موقف البطل مرتبط بالإيمان، عرفنا أن موقف الشاعر مرتبط بعدم القدرة على الإيمان.

أن الشاعر يلمس الإيمان يقترب منه ويدور حوله لكنه لا يؤمن. وموقفه التعبيري من الوجود قائم على هذا الأساس، فليست لحظات تعبيره سوى لحظات إعجاب أو دهشة وانفعال، وهذا كله ليس في مجال الإيمان، لأن المعجزة توجد في قانون الإيمان وهى لا تثير دهشة ولا فرحا مفاجئا إلا لغير المؤمنين.

مسا ء ١٢ من سبتمبر

إنني أريد التعبير، التعبير الفني بأي ثمن. وليس التعبير الفني مجرد كلمات ولا اعترافات بل هو وجود الصور والمعاني والقالب إلى جانب اللفظ. كل ما لدي أحاسيس لا تستطيع أن تنتظم وأنا أجاهد عبثا في أن أجمعها حول قالب أو معنى. أنها تنطلق من مكامنها اللاشعورية في زحمة لتفر مني إلى حيث لا أدري.

أريد التعبير الفني لأن الجهد الذي أعانيه وقت تكامل العمل الفني هو الذي يطمئنني على أن حياتي لم تصبح خرابا تماما بعد. ورغم هذه الرغبة الشديدة، ورغم أن الأشهر تمر

سراعا، فأنا لا أزال جالسا فارغا أنتظر. وتمر أمامي أشباح تغريني بالعدو وراءها لكنها ما تلبث أن تختفي. لم تعد في روحي قدرة على تجسد انفعالاتي ولا على السيطرة عليها وإخضاعها لقالب منتظم. وأصبح الطريق السهل أمامي هو أن أترك نفسي إلى اعترافات في يومياتي، وهذا لا يتطلب انتظاما ولا جهدا إراديا لخلق قالب ما.

لكن بي حاجة تدفعني إلى عدم الاكتفاء بهذا النوع من السرد المنطلق.

إنني أحس أن هناك ثروة تضيع مني وكان يمكن استغلالها كمواد لأعمال فنية ناجحة، ثمة حاجة تدفعني دفعا ملحا إلى العثور على المنتظم من خلال المبعثر والمفكك في نفسي الجياشة أبدا والمنفعلة أبدا. لكنني لا أحصل على غير الرغبة في ذلك، ثم الإحساس العميق بالعجز والتعطل.

مساء ٢٣ من سبتمبر

كنت أستمع بالأمس إلى العبقري بيتهوفن. كنت أستمع إلى السيمفونية التاسعة لخامس مرة في مدى أسبوعين، وكلما سمعتها اشتد بي الظمأ إلى سماعها ثانية وثالثة وما لا نهاية له من المرات. هذا الإنسان عاش حياته كاملة وعاش حياة

الآخرين والإنسانية والوجود كله. إن كل من عاش تجربته كاملة استطاع أن يعبر عنها كاملة، إن التعبير هو كمال الوعي بالتجربة.

ففي التعبير، نحن نلخص كل فصول التجربة التي تلقيناها، وفي التعبير نقوم بمحاولة إيجابية ضخمة. ذلك أننا نحمل الآخرين على أن يعيشوا تجاربهم أيضا.

وعلى الفنان أن يتعلم من ممارسته الفنية كيف يمارس الواقع، فلا خلاف بين ممارسة الفنان لعمله الفني وممارسة الإنسان للواقع الحي، من حيث المنهج على الأقل. الفنان المجرب - كالرجل المجرب - يعلم أنه قد ينتظر أسابيع بل شهورا من أجل أن يحس تلك الحماسة الدافقة التي تحيل العالم أمامه فجأة إلى قصص وأساطير، وهو قد يتألم لهذا الانتظار، لكن هل عليه إلا أن يرغب ويرجو وينتظر؟ وهو يعلم أن الفكرة الشاردة التي قد لا يكون لها كبير خطر في وقت ما قد تصبح فيما بعد موضوعا رئيسيا من مواضيع إبداعه، كما أنه يدرك تماما أنه حين يبدأ عمله الفني فهو معرض لتغييره وتبديله. وعندما يريد أن يجسم أفكاره وعواطفه في أداة ما فإن إمكانيات جديدة ما كان ينتظرها

تنبثق من اتحاد الفكر والعاطفة بالأداة الحسية، فهو يعدل ويبدل من أجل إخراج الوضع الملائم الذي يهدف إليه.

وهذا التغيير والتبديل لا يزعجه كثيرا، بل أنه ليرقبه في قلق وفرح. كذلك لا يزعجه كثيرا أن يفشل، فإذا أحس أنه انتهى إلى غير النتيجة التي يرضاها فهو لا يتردد في أن يحطم عمله لعله يبدأ من جديد.

وهو مؤمن بالزمن إيمانا لا حد له، فالزمان يحمل له منابع حياته التي يحياها، وفي المستقبل يكتنز ثروته التي لا تقدر، فإذا بدأ عمله الفني أخلص له كل الإخلاص، وأخضع كل شيء في حياته سواء أكان تافها أم خطيرا من أجل الوصول إلى نجاح عمله الذي بدأه. ولا تعود الأشياء تتقيم أمامه إلا بمقدار ما تؤديه من نفع لإتمام هذه الفكرة أو نضوج ذاك البناء. حتى إذا ما بلغ نهاية الطريق نظر مرة إلى ما قام به فإذا أحسه فاشلا حطمه وإذا أحسه ناجحا فرح به وأحبه، ليس ذلك الحب الذي يوحي بالقناعة والاكتفاء، بل ذاك الحب الطموح. ولا يلبث أن ينسى انتصاره الأخير ليبحث عن انتصار جديد. لهذا كان الفنان هو ذاك الغاوي الأكبر.

مساء ٣٠ من سبتمبر

ما أخطر انهيار العالم المتماسك أمام الفنان، الفنان الذي تعود أن يرى من الجمادات الصامتة حتى الخفقات والخلجات تماسكا وترابطا. وفجأة ينهار من أمام عينيه هذا النوع من التماسك القائم بين الأشياء وبين الأفكار وبين الأشياء والأفكار معا. إنه يحس كأنما العالم فقد منطقه، وكأنما انعدمت المعاني التي يحيا من أجلها.

وهنا يحتاج الفنان إلى جهد بالغ لكي يدرك - ولو في غموض – أن هذا الترابط الذي يراه بين الأشياء ليس هو جوهر الحياة بل هو جانب من جوانبها امتاز هو بمواهبه ومرانه أن يلمحه ويكشف عنه ويعبر لنا عنه، وأن في الحياة جوانب أخرى غير مجرد اكتشاف الأنغام والألوان التي تربط بين الأحداث والأشخاص والأشياء. والفنان الذي لم يكن قد عود عينيه على أن تشهد شيئا غير القصص والأساطير خلال العالم المزدحم المصطخب، يرى نفسه قد أقفرت فجأة إذا هو فقد في لحظة ما هذه الميزة، فبهتت الأشياء جميعها أمامه ولم يستطع أن يدرك أن الفعل نفسه والحركة والحياة هناك.

عليه أن يقاسي وأن يعاني حتى يتعلم كيف يرى الأشياء متفككة أحيانا، وأن الترابط القائم بينهما ليس دائما. وعليه أن يعرف أن هذا الانسجام والتسلسل والشكلية التي تقوم عليها الأشياء ليس إلا انعكاسا لروحه الحساسة التي تخلق هذا الانسجام والتسلسل والشكلية وأنه إذا تفككت روحه وانحلت تفككت كل الصور والأنغام.

إنه يعلم أن الإبداع الفني ضروري له ضرورة الطعام للناس، لكن عليه أن يعود نفسه الجوع والصمت أياما بل أشهرا إذا هو اضطر إلى ذلك، وعليه ألا يجزع ويستعجل خلق قوته من جديد. وعليه أن يمارس أشياء أخرى بنفس الاستمتاع الذي كان يمارس به عمله الفني عندما تنضب مواد أنغامه وصوره حينا من الزمان وأن يخلق عملا آخر بنفس السرعة حين يحس أن " البطالة الوجدانية " تجتاح فترة من حياته. فإذا لم يستطع أن يأخذ نفسه بهذا الفهم الصحيح لحياته كإنسان إلى جانب حياته كفنان، فإنه سيتعرض لأزمات روحية شد ما يكون خطرها عليه.

نحن نسمع الكثيرين يتحدثون عن الآلام التي يعانيها كل فنان وهو يقوم بعمله الفني، وعن التجارب القاسية التي

تربض وراء هذه الثروة الضخمة التي يكونها الفنان بنفسه من كل لحظة من لحظات حياته، وعن المعاناة المريرة التي يمر بها الفنان قبلما يخلق عمله وفى أثناء خلقه وبعد هذا الخلق، وهذا صحيح إلى حد كبير. لكن ثمة ألما أخطر يعانيه الفنان، ذلك حين يحس بالجدب في روحه، وحين يجزع إذ يرى العالم يتفكك أمامه، فينظر إلى اللحظات السابقة وكأنه فعل فيها المعجزات حيث هو اليوم لا يستطيع أن يؤلف بين صوتين أو كلمتين. وإذا كانوا كثيرا ما قد شبهوا الفنان بالأم، فإننا نستطيع الاستفادة هنا من هذا التشبيه فنقول إن الأم تتألم وهي تلد طفلها، لكننا نعلم أيضا كم من سيدات يكون ألمهن أعظم وأمر لأنهن لا ينجبن أطفالا، وكم من محاولات يبذلنها في سبيل أن يبلغن ألم الولادة، أن ألم العقم أهول الآلام وأفظعها جميعا.

إن الفنان أحيانا ما تمر به لحظات يفقد فيها قدرته على القيام بعمل فني، لكن عليه أن يأخذ نفسه بالصبر والأناة حين يجد نفسه متجها نحو هذه الفترة العصيبة. إن إحساسه بالضيق ضروري للتخاص من هذه الفترة ومن أجل الوصول إلى حياته الأولى، حياة الإبداع والتعبير، لكن عليه أن يستغل

هذه الفرصة فيعيش الحياة كما يعيشها الآخرون في تبعثرها وتفككها وانهيارها. وعليه أن يتذوق في مثل هذه اللحظات طعم الحياة اللاتعبيرية التي تكاد تكون فعلا خالصا وممارسة مباشرة للآخرين والأشياء والأحداث، فوجود الهوة بين الحياة التي يحياها الملايين وبين حياة الفنان هي خطر حقيقي على الفنان وعلى عمله، كذلك عليه أن يأخذ نفسه بممارسة الحياة في صورها الأخرى، حيث هي ليست مجرد التعبير الفني، بل هي حركة ورغبة وتحقق.

والفنان يعلن أنه يقوم بصفقة خاسرة، فهو يبذل أكثر مما يحصل. أنه يبذل من عواطفه وخلجاته في الوقت الذي تتوهم فيه أنه يحصل على معان أو إثارات. وفي الوقت الذي نحسب فيه أنه قد حصل على التعبير يكون في واقع الأمر قد بذل من جديد لهذه العواطف والخلجات. وهو حين يختفي وراء قناع التعبير، ويقدم نفسه للناس ليحس إحساس البغي التي تعرض أنفس ما تملك المرأة على المارين عسى أن يعجب واحد أو اثنان بهذا المكان من جسدها أو ذاك.. ذلك أن الفنان بعد ما يتألم ألما أقوى من التعبير ويخرج للناس ما كتبه، نراهم يهزون رءوسهم وفي خير الحالات يصيحون...

ما أبرعه نعم ما أبرع تألمه. وهو يعلم أن هذه هي طبيعة العمل الفني بل " ميزته ". أنه يحيل الألم الصارخ إلى ألم ناعم، وما أبعد الفرق بين الألمين.. إن الفنان يعاني الألم الأول، الألم المهول المزعج، لكنه حين يقدم فنه للناس فإنه لا يقدم هذا النوع أبدا، إنه يحس حاجاته وحاجتهم إلى المشاركة، لكنه في سبيل ذلك يفقد الألم لديه أصالته ويستحيل إلى نوع آخر. ويدرك أن الناس لم تشركه آلامه أبدا بل شاركته العناصر الجمالية التي لم يعرفها قط في تجربته الحقة الواقعية. وهو بإدراكه هذا يزداد تألما في نفسه ويزداد تبسما للآخرين.

مساء ٥ من أكتوبر

إن كل فنان في حاجة إلى الذكريات وإلى التجارب الغنية وإلى التراث البشري معا.

وهذا هو الخطر على كل من له طبيعة الفنان وليست لديه أدوات الفنان وضروراته الخارجية، فهو يقترب من وضع قريب من الجنون، لأنه بطبيعته لابد أن يفكر وأن يتخيل وأن ينتج، فإذا لم تساعده أدواته على الانطلاق الذي يبغيه ويعلم ضرورته له فإنه يجد نفسه في آخر الأمر يدور

حول نفسه. والكتب قد تعطيه الناحية الشكلية لتعبيره لكن تجاربه هي التي تعطيه المادة والشخصيات. فإذا لم تكن لديه القدرة على الانطلاق فسيشبه عجلة ترام أو سيارة ظلت تدور حول نفسها بغير أن تدفع المركبة أو السيارة إلى المسير. ومهما كانت طبيعته من القوة فإنه لن ينتج لنا في النهاية أدبا واقعيا يلامس الحياة بل سيخلق عالمه الخاص. ومهما كانت طبيعته من الغنى بحيث تستطيع أن تحيل ما يبدو للناس تافها إلى موضوعات حية خصبة، فإنه سيجد نفسه في آخر الأمر شديد الشوق إلى أن يعيش تجارب جديدة ويرى بلادا جديدة ويتعرف إلى أفكار جديدة، فلئن كانت طبيعته خصبة فهو يدرك أنه سيصبح أكثر خصوبة وغنى. وفنان اليوم، مهما كان ذا طبيعة عملاقية، هو في أشد الحاجة إلى التراث الإنساني حاجته إلى التجارب الحية المتجددة، وإلا أنتج لنا أدبا متخلفا عن حضارتنا بضع مئات من السنين حيث يضيع بين زحام الفكر.

وإذا كان لدى الفنان إحساس دائم بالنقص في قدرته على التعمق والتعبير، وإحساس أشد بالنقص في استيعابه للتراث الإنساني وفيما لديه من تجارب، فإنه ليستطيع أن

يتحمل هذا الإحساس طالما هو يعلم أن ذلك يدفعه إلى أن يكون أكثر جهدا في تعمق الأمور وأكثر حرصا وأقل غرورا في محاولاته التعبيرية، ويشعره ذلك بأن أحسن أعماله إنما هو العمل المقبل دائما، وإن كان كل عمل هو مقبل عليه إن هو إلا محاولة للدفاع عن النفس مما تتهمها به النفس.

إن الفعل يستوعب الجزء الأكبر من حياة الغالبية العظمى من الناس، والفكر مرتبط لديهم أشد الارتباط بأفعالهم، فهم لا يفكرون إلا لخدمة الفعل.. للعزم عليه قبل وقوعه أو لتبريره بعد وقوعه. لكن الأمر ليس هكذا دائما مع الفنان. فهو مهما أحس بغنى تجربته الواقعية الدافئة فهو لن يراها فعلا وحركة فحسب، بل سيرى - بحكم حياته واتجاهه - جوانب فكريه وتعبيرية ورمزية بل وسديمية هي أجزاء ضرورية مكملة للتجربة لديه. والفنانون العظماء قد استطاعوا أن يسيطروا على جوانب الظلام في حياتهم وأن يطووها تحت أجنحتهم وهم يعلنون انتصار الإرادة الإنسانية والرغبة الإنسانية بمختلف الطرق وشتى التعابير... فيما قدموه للإنسانية من صور وأفكار، في فرحهم المجنون ويأسهم المريض، وفى أعمالهم التي بدأوها ولم يتموها لأن

الحياة صرفتهم عنها بمضايقاتها ومشاغلها أو لأن الموت أخمدها. إن سيمفونية شوبيرت التي لم تتم وأعمال فرانز كافكا وأمثالها هي الأعمال الإنسانية التي كان فيها الصراع واقعيا وبطوليا بين الرغبة في الحياة وظل الموت.

صباح ١٢ من أكتوبر

يومان وسأتم عامي الحادي والعشرين.. يومان وسأحتفل مع أصدقائي بعيد الخريف، سيقبلون الواحد بعد الآخر وعلى وجوههم ابتسامة رغم ما تحمل الحياة من ذكريات وأعباء ومجاهيل، سيقبلون يا صديقتي الواحد بعد الآخر، أما أنت فلن تقبلي.

وسيجلسون جميعهم حولي يتحدثون ويتضاحكون وأنا جالس معهم أتحدث وأتضاحك، وسأفتقدك بينهم يا صديقتي فلن أجدك. سأحس فقدك واضحا قاسيا ومؤلما للغاية، سأريك ولن توجدي.

سنحتفل بالخريف يا صديقتي وسنفرح، سنستمع إلى أنغام عذبة وأشعار عبقرية، وسيغمرنا ضوء القمر في تربيعه الثاني ويلفحنا هواء الخريف الناعم الندي. لكن فرحتي مبتورة يا صديقتي. كلما علوت درجة، كلما حصلت على

جديد، أحسست أن فرحتي ناقصة، أن ثمة إنسانا كان يجب أن يشاركني كل خطوة من خطواتي حتى تكمل السعادة التي أنشدها في هذي الحياة. لكنك مضيت عني والسعادة ما استمتع بها واحد.

وكلما خلصت من هذه التفاهات التي نهرب إليها من كل ما هو عميق رهيب، تبدت أمامي الحياة كوحدة رائعة أبدا لن تعود، وتذكرتك يا صديقتي وأنت توجدين في نفس المكان وفي نفس الزمان، وقد مددنا العدم بيننا قبل أن يمتد هو بنفسه إلينا. وتذكرتك وأنت تسيرين مع الغرباء وأنا أسير في طريق أعرف أنه ضمني معك ذات يوم، ثم افترقنا يا صديقي وما عدنا نلتقي، والحياة واحدة ثم بعدها لن نعود نوجد.

وفي آخر الليل سينصرفون يا صديقتي، الواحد بعد الآخر كما أقبلوا... إلى أن ينصرف القمر عني أيضا. وأجلس وحيدا في حديقتي الصغيرة الفقراء، وفي هذا الصمت سأذكر كل شيء... سأذكر أنني لا أستطيع أن أفعل شيئا لقلبي وهو يخفق في عنف كلما رآك، بل كلما كنت أسير في طريق أو أجلس في مكان ثم لمحت إنسانا يشبهك خفق قلبي

فإذا تبينت أنه آخر سأذكر كيف ترتد خفقات قلبي تريد أن تعود إلى انتظامها المألوف.

وعندما يحل بي التعب، ويرهقني الإحساس بالعدم والصمت والفقد سأذهب كي أنام، ستمر بي صور عجيبة مضطربة وأنا مقبل على عالم النوم. ثم تثقل أجفاني. وقد أرى حلما أو حلمين، قد أذكر منهما شيئا وقد لا أذكر، حتى أفيق مع الصباح. وسأفتقدك يا حبيبتي لكنك لن تعودي توجدين. سأذكر أنني فقدتك في هذه الزحمة، فأمضي وأنا أحس أن ثمة شيئا دائما ناقصا مني وأبدا لن يكتمل.

وسيمر عام في إثره عام، وقد يحدث أن أعيش وقد يحدث أن تعيشي. وسأحتفل مع أصدقائي بعيد في إثر عيد. وقد يحدث أن تبهت صورتك على مر السنين بل قد تحترق تحت دفء ذكريات جديدة، وينكمش ذكرى لقائنا وقسوة فراقنا بين هذه الزحمة من الذكريات والأحداث الجديدة. وقد لا ترين يا صديقتي سوى أن هذا انتصار للحاضر الجديد على الماضي العتيق، وقد يكون هذا حقا، لكنه في الآن نفسه يعني هذه الحقيقة المزعجة التي أنتفض من مجرد ذكرها الآن... ذلك أن العدم ينسج نفسه حول الوجود العزيز الذي

كان مني ومنك. وحين يلف العدم آخر خيط على هذا الوجود لن يعود يرهقنا صمت ولا فقد، ولا حب ولا كره.

مساء ٢٠ من أكتوبر

وإذا كان على الفنان أن يتخذ موقفا أخلاقيا، فليكن موقفا بلا حقد ولا كره من الأشخاص الذين يبدعهم في أعماله الفنية. وإذا كان لدى الفنان مهمة أخلاقية فلتكن هذه المهمة أن يجعل كل شخص - في عمله الفني - مقبولا سواء أكان مجنونا أم قاتلا أو متعجرفا أم محبا كريما - إن كل تصرف يحمل معه وثيقة تبريره. ولسنا نفجأ ولسنا نكره، ولسنا نحقد، إلا لأننا لم نطلع على وثيقة التبرير هذه. وإذا وجدنا في قصصه أو مسرحياته أشخاصا يكرههم أو يخاف منهم أو يجعلنا نكرههم ونخاف منهم فمعنى هذا أنه لم يوضحهم لنا بالقدر الكافي وبالتالي أنه قصر في أدائه الفني. فالفنان مطالب بمهمة أخلاقية، ذلك ألا يجعلنا نحب شخصية من شخصياته إلا بالقدر الذي به تنسجم مع نفوسنا، بحيث لا نحقد - بالرغم من ذلك - على الآخرين لأننا ندرك لماذا كانت أعمالهم وحياتهم حيث إن الحياة العادية لا تتيح لنا أن نطلع على هذه التفسيرات. إن كثيرا من الكره والحقد يزول

من العالم لو أننا تصفحنا وثيقة الاعتراف لكل ما يحدث، إن كل فعل يحمل وثيقة تبريره وكل كراهية منا للآخرين إن هي إلا جهل وتكاسل وبلادة.

تلك خطرات طافت بذهني هذا الخريف، ذاك الفصل الذي هو أروع الفصول جميعا، إن الصيف في مصر فصل الموت والارتياح والكسل، أستوعب فيه أكبر مقدار من الكتب حتى إذا ما أقبل الشتاء ذلك الفصل الحي النابض، بدأ العالم يتحول أمامي إلى أساطير وقصص، وتنبعث الذكريات فيه كأنما هو اليوم الأخير، وأبدأ أرى وأسمع في كل مكان أبطال ملاحم.

فالشتاء لم يعد في وجودي ذلك الفصل الميت من العام، ولا الخريف ذلك الفصل الذي تتساقط فيه الأوراق وتجف. بل الخريف عندي هو مدخل الحياة، الحياة القوية الهائلة التي يبعثها الشتاء في نفوسنا ببرودته وعواصفه وأمطاره ورعوده. إن كل شيء يتحول أمامي من جديد إلى ألوان ذهبية وأخرى في روعة الشفق، إن العالم يستيقظ في نفسي من جديد، إن نفسي تزدحم بأشياء غريبة وعديدة، أن ثمة

أصواتا وكائنات تتسرب إلى أعماقي كأنما في خفية، إنها تزدحم في نفسي وتدفن فيها مختلطة بي منتظرة يوم ميلادها.

مساء أول نوفمبر

بعدما أعيش ضجيج النهار والمجتمع، أعود إلى بيتي وأهلي، ثم أخلو إلى غرفتي أخلع عني ملابس النهار والمجتمع لأرتدي لباس الليل الفضفاض فأحس راحة تشمل جسدي وروحي ويصبح كل هذا الضجيج الذي خضته أثناء النهار مجرد ذكريات وخيالات تستمد وجودها من غياب واقعها. هنا أخلق " مجتمعي " بنفسي بما فيه من أصدقاء وأعداء ومجانين وعقلاء وحيوان وجماد. ففي الخلوة أصبح محور هذا الوجود الذي أخلقه وأزحمه بالآخرين لأنهم من خيالي حتى ولو أحسست بأنني لا أملك أبعادهم.

وفي المجتمع يكون الواحد منا أقدر على ضبط عواطفه وشعوره وأقدر على التحرك نحو الهدف القريب الواضح، أما حين أخلو إلى نفسي فإنني أحيا انحطاطي وارتفاعي، فأحب إلى درجة الجنون وأكره إلى حد الجريمة. لكن ثمة خطوة لا تنتشر من ضباب اللاشعور إلى هذا الحد، ذلك حين أكتب فالكتابة تحد من انطلاق الروح التي كبتها المجتمع

طول النهار، تحديدا لا يشوهها لكنه لا يعطيها هذه الحرية العربيدة التي لا تعترف إلا بنفسها.

والنهار يعطيني أحاسيس كثيرة ما بين أحداث قد تكون تافهة وأخرى قد تكون خطيرة بالنسبة للمجال الذي أتحرك فيه، لكنها تؤثر في نفسي دائما كأنها اهتزازات تسجل على آلة السسموجراف، وهذه التي تنشأ عن الأحداث تولد بدورها أفكارا إلى جانب ما تولده من استجابات لهذه الأحداث. أما الاستجابات فإننا نقابل بها الموقف أو الحدث، أما الأفكار فهي تظل معنا نستطيع أن نحتضنها ونستفيد منها إذا نحن راعيناها ونميناها وتنبهنا إلى ما فيها من خصوبة وتنوع.

والواقع أن الحياة الإنسانية خصبة إلى أعظم درجة يمكن تصورها، خصبة بشتى الإمكانات التي يمكن أن تحقق مقدارا كبيرا منها إذا نحن بذلنا بعض العناية، والتي يمكن أن تموت إذا نحن تركناها تمر دون اكتراث. والعزلة الخصبة هي التي تجيء بعد حياة صاخبة بالآخرين أو بما يسببه الآخرون من قلق وحب ونضال، هنا في العزلة نجمع هذه الأبخرة الهاربة إلى النسيان ونركزها في ذاتيتنا لنعطيها اللون الخاص مهما بدا هادئا رقيقا.

ورغم أنه من الصحيح أن الأحداث التي تمر بالإنسان تؤثر فيه بالضرورة، إلا أننا نرى أشخاصا لا يستفيدون من تجاربهم الماضية قدر ما يستفيد غيرهم منها. وهذا راجع إلى أن هؤلاء لا يعطون أنفسهم فرصة لإحصاء ما ربحوه بعد جهادهم طوال النهار، كتاجر عمل طول النهار، من المؤكد أنه ربح شيئا ما، يهمل أن يحصى ما ربحه، بينما الآخر، دائما عندما تقفر الطريق ويمتد الليل ويعرف أن أحدا لن يعود دكانه يفتح خزانته المخبأة، والتي قد لا يعرف أحد مكانها، ثم يعد نقوده ويحسب في دقة مقدار ما ربحه اليوم. إن كثيرين لا يعطون لأنفسهم هذه اللذة لذة الإحساس بالربح، وقد طغت علينا حياتنا الاقتصادية بحيث علمتنا أن الربح لا يكون إلا في النقود والإنتاج، بينما نحن نستطيع أن نتصور أن هذا النوع من الإنتاج المربح سيزول، لكن ما لن يزول، هو ذلك الربح الروحي الذي نعود به آخر النهار، بعد ما بذلنا من عواطفنا وأفكارنا للحياة العامة الصاخبة. نعم، يجب أن نعود بربح في آخر النهار، يجب أن نحصل على شيء وأن نكتسب أشياء. إن أعمارنا تنمو والعالم ينمو وأجيال تموت، وأجيال تولد، ونحن نندفع في وسط السباق، فكيف

نعود فارغين بعد كل هذا الجهد الذي بذلناه من نفوسنا وأوقاتنا ولحظات حياتنا، وبعد هذا الذي بذلناه بخفقات قلوبنا وضحكاتها واعتصاراتها؟

مساء ٧ من نوفمبر

قد أقبل الشتاء، الشتاء الرائع قد أقبل، إنني أحس أنني نشوان، لقد أقبل الشتاء، الشتاء الرائع قد أقبل.

بالأمس كانت الغيوم تغطي السماء، وأحسست الشتاء يدب في ذاتي، ولشد ما أحب الشتاء. كانت الشمس ستغرب، فهرعت أجري، جعلت أعدو، أعدو مع الريح حتى وصلت إلى حقول خضراء بين النيل والجبل. ووقفت أرقب الشمس، كانت رائعة. هذا كل ما يستطيعه التعبير البشري. كان هناك لون ناصع جدا، يزركش السحب العجيبة ووراءها جمرة نار متقدة ملتهبة جمرة حمراء تشتعل كنفسي، وهذا النور الأبيض الناصع رهيب، رهيب وعذب. كانت ثمة أعمدة من الدخان تنتشر من الشمس متفرقة وراء السحب كأنما هي أجنحة من لهيب تحرس الغيوم العجيبة! كان النور ناصعا، ناصعا جدا، ثم ابتدأ ينطفئ شيئًا فشيئًا، حتى بقيت منه حواش تحيط بالغيوم، الغيوم التي أصبح لونها كهرمانيا مخمليا،

كانت الغيوم ناعمة جدا ثم سرعان ما انقلب لونها بنفسجيا مخمليا، لكن الحواشي كانت لا تزال بيضاء ناصعة. وكان الجو دافئا، لم يمكن باردا، كلا بل كان دافئا. وكانت الشمس قد غرقت وتركت وراءها سحبا قاتمة. والقمر، من فوق الجبل يتصاعد في بطء، لم يكن في وضوحه الفاضح كشأنه في الصيف، بل كان هذه الليلة رائعا كنفسي، قد التفت حوله الغيوم، فبدأ كضباب من النور، لا معالم ولا حدود، بل هو منتشر حتى ملأ السماء والأرض بنوره العجيب.

وفي الفجر، في هذا الفجر صحوت قبل بزوغ الشمس وخرجت، لأرقص وأغني، فالشتاء قد أقبل. كان القمر لا يزال بين السحب، لكنني لم أر ضباب النور، لم يكن هناك، بل كانت ثمة سحب قاتمة ينبعث من ورائها النور، عرفت أنه وراء السحابة الكبيرة، لكنني لم أره ولا رأيت ضباب النور، ومن هناك، من وراء السحابة القاتمة كان ينبعث النور، فكان الجو كله يسبح في سكون، في فيض من جلال. وكان الجو لا يزال دافئا، دافئا عذبا، والغبار يتطاير، والرذاذ يتساقط خفيفا، خفيفا، والنور في كل مكان حتى في نفسي، والشمس بدأت تعلو مرة أخرى، كانت رائعة، رائعة جدا،

والنور الأبيض الناصع عاد من جديد أشد بياضا وأكثر فرحا وتوهجا. وذهبت إلى الحقل بين الجبل والنيل، ومر أمامي بعض المارة، لم يكلفوا أنفسهم مشقة النظر نحو السماء. والجبل والنيل اكتسبا – مثلما اكتسبت – ذلك النور الناصع. لم يكن ثمة شمس، بل نور ودفء في كل مكان.

مساء ١٦ من نوفمبر

إن موقف الناس في الحياة من تجاربهم، موقف قراء القصص الرمزية مما يقرءون، بعضهم - ممن لا يزالون في مرحلة الطفولة الروحية – لا يفهمون من تجاربهم التي تمر بهم سوى حوادث وحركات، انهم لا يدركونها إلا في صورة أحاسيس، أما القليلون فانهم لا يقفون عند السطح أبدا، دائما يعبرون هذه الأسوار الرمزية التي تحيط بالمعنى ليحيوا مع أعماق التجربة. وهنا قيمة الذات، فليس من الضروري أن يكون كاتب القصة قد قصد شيئا على الإطلاق غير مجرد التعبير، لكننا إذا أقحمنا ذواتنا في القصة فقد نستطيع أن نستخرج منها معاني ما قصد إليها الكاتب حين دون سديمه.

إن داءنا هو أننا نباتات شيطانية ترعرعت في بيئة جرداء عاطلة. نحن عصاميون، كونا هذه الثروة الروحية

الضئيلة بمجهود جبار، وكفاح مستمر. ليست العبقرية هبة أبدا، إلا أن تكون هبة الرغبة في النمو والكفاح. إنها ذلك المجهود المتواصل لتكوين عادات التفكير الدقيق، والإغارة على الحدود، ومعاناة التجارب، إنها ذلك الإنهاك المتواصل لخلق عادات الملاحظة والتعمق والتعبير.

إنني هنا أحس أن الإنسانية كلمة مجردة أكتب لها. ذلك هو ما فعله كل إنسان كتب اعترافاته، إنه جعل من الإنسانية كاهنه. إنني إذ أصارع كل هذه الانفعالات والمخاوف والآمال إنما أشبه هؤلاء المصارعين مع الوحوش أيام الرومان، كل الفرق بيننا، هو أننا اليوم نذهب لنعرض صراعنا على الناس ليتلذذوا برؤية دورنا الرهيب حتى تفترسنا الوحوش بين هتافات النظارة وضجيجهم.

لقد ذهبت بالأمس إلى فيلم " أغنية برنادت " وأعجبتني فيه فكرة الحبل بلا دنس التي كانت تشير في القصة إلى مريم العذراء فقد عادت بي هذه الجملة إلى الحياة الفنية، وهل من الممكن أن يكون هناك حبل بلا دنس. هل من الممكن أن يظهر بين الفنانين "مريم العذراء" فيلد عملا عبقريا بغير ما دنس. وأعني بالدنس هنا ذلك الألم الخطير

الذي يعانيه الفنان عند اتصاله بالموضوع الخارجي عساه يلقح فكره ويخصب عواطفه. ذلك هو الدنس حين نختلط بالعالم المزدحم بالخطيئة والألم، حين نمتزج بالوحل والتراب من أجل الحصول على فكرة! هل ثمة مجال لحدوث المعجزة هنا؟

مساء ٢ من ديسمبر

منذ شهور وأنا مندفع في رحلتي نحو الداخل. وهذا الرحيل نحو الداخل شد ما يثير في جوا سحريا، جوا شرقيا رائعا. وفى هذا الرحيل، في هذا التقهقر نحو العصور الجيولوجية الأولى للنفس أصطنع رموزا لأتحدث بها عن ذلك العالم الأسطوري، إننا نخلق الأساطير لعالمنا الروحي ونحن نوغل في مجاهله فرحين بكل اكتشاف نعثر عليه بين طبقات غطاها زمان من إهمال الناس وكثافة نفوسهم.

إنني أقرأ في تدبير المتوحد لابن باجة، واقرأ كلماته في لذة وفي متعة وارتياح. أحس اللذة في هذه المشاركة الروحية التي تربطنا معا، وأحس المتعة حين أدرك أن نفسي تختلج بأحاسيس وأفكار اختلج بها مفكر منذ أكثر من ثمانية قرون. وأحس الارتياح حين أرى أنني لست وحدي في تجربتي في

الحياة، لست متوحدا هنا.. إن لي رفقاء وإنني لأستطيع أن أقرأهم في الماضي، وألمحهم في المستقبل. أنهم يحسون أن الحال التي يصلون إليها بعد مشقة وعسر لا يستطيعون إخفاءها لما لها من البهجة والسرور واللذة والحبور كما يقول ابن طفيل في قصته حي بن يقظان، إنهم يعانون حتى يحصلون، ويعانون حين يقدمون.

إنني أجد عزاء عميقا في هذه الفلسفات، أنا لا أقرؤها بل أحس أنني عشتها من قبل وأعيشها مرة أخرى. لكم نفرح حقا حين نجد إنسانا عاش تجربتنا ولو كان من أهل الماضي الذين تحولت أجسادهم ترابا، إننا نحس أن هناك مخلوقا قد أحس إحساسنا فاستطاع أن يشاركنا آلامنا لأنه عاناه ومن ثم يستطيع أن يعرفنا ويحبنا ولا يمكنه أن يكرهنا أبدا. وهنا نشعر أن الزمان لا وجود له، فوجوده في الماضي لا يقلل إطلاقا من فرحة هذه المشاركة. وكل تعبير عظيم هو الذي يعيد إليك الثقة بنفسك وبالحياة وبالموجود.

مساء ١. ديسمبر

نعم هذا يحدث... نعم إنه يحدث.

يحدث أن يلتقي طريقان، ربما يبدأ أحدهما من مدينة عظيمة والآخر من قرية حقيرة لكن يحدث أن يلتقيا، لحظة واحدة فحسب، ربما بالقرب من غدير، أو عند ظل شجرة وارفة، أو في مهب حقل من الورود، أو حيث يعبر العاشقون في طريقهم إلى غابة هادئة، ورغم هذا فإنه يحدث، إنه يحدث أن يفترق الطريقان بعد هذا اللقاء، ويمضي... ربما أحدهما إلى مدينة عظيمة والآخر إلى قرية حقيرة.

ويحدث أن ينمو الجنين في بطن أمه، تغديه بدمائها وتمنحه حياة من حياتها، ثم يصبح رضيعا تعطيه ثدييها وتقبله بدموعها، ثم يحدث أن تترقب أولى خطواته وأن تفرح بأولى كلماته وأن تضمه إلى صدرها كلما أقبل فرحا أو خائفا، ويحدث كذلك أن يحبها الطفل وأن يناديها كلما أصابه مكروه صارخا... أماه، وأن يردد في كل مساء تلك الصلاة التي علمتها له، ثم يحدث أن ينفصل الاثنان، ربما لا يعود أحدهما يعرف الآخر، ويصبح الواحد اثنين إلى الأبد. وكأنما ثمة هوة بين اتصال الأمس وانفصال اليوم استطاع الزمان وحده أن يعرفها بعبقرية شيطانية.

ويحدث أن تجيش نفس الإنسان برغبة أو خلجة، ربما صاحبته ظلالها منذ الطفولة وهو لا يزال يحبو، وربما اتضحت له لحظة حين مرت به لفحة من عطر قديم يعرفه، ثم يحدث أن تنمو هذه الرغبة ممتصة من دمائه في كل لحظة من لحظاته، ثم تبدأ هذه الرغبة في الانفصال عنه في عمل ما، لو كان فنانا ربما كان قصة أو قصيدة. ثم يحدث أن يمر الزمان وإذا بنا نحتاج إلى شيء من الجهد كي نذكر كيف كنا وهذا العمل شيئا واحدا، فقد أنكرناه، بل ربما أصبحنا نخجل منه أو هو يخجل منا لمجرد أن يقال لأحدنا أننا كنا واحدا من قبل.

هذا يحدث دائما، في كل يوم وفى كل لحظة، أن يصبح الواحد اثنين إلى الأبد... ويحدث أن الإنسانية التي كان ظلها ينمو شيئا فشيئا مع نمو قلوبنا، والتي بدأت برغبة عميقة مختبئة من نفسها في أعماقنا، ثم اتضحت ذات يوم في وشاح حلو... الإنسانة التي مزجنا مستقبلها بمستقبلنا وجعلنا هدف ماضيها وماضينا تلك الوحدة التي أصبحت بيننا، الإنسانية التي تطلعنا إلى عينيها حين خفقتا ومسحنا دموعها بدموعنا، نعم يحدث أن ينطفئ كل هذا وألا يكون مصيرنا إلا مصير

الطريقين والأم وابنها والفنان وعمله، ويحدث أن نمزق في قسوة هذه القيود الحريرية التي نسجناها حول أنفسنا في لحظة أخلصنا لها وألغينا فيها كل ماض وكل مستقبل. ويحدث أننا نستطيع بعد هذا أن نسير، وأن نصر في جرأة على أن نمضي مبتعدين نحو أراض جديدة وشموس جديدة. لهذا تتدفق الأنهار، وتتشعب الطرق.

تلك هي آلامنا نحن البشر، ولهذا نحن وحدنا النوع الذي يتعذب. أن لنا وجودين: وجودا روحيا يتطلع نحو المجهول، لكن له كذلك عيونا لا تهدأ دائما تخترق كثافات الماضي باحثة عن جرح أو ذكرى، ثم وجودا واقعيا لا يعرف إلا الحسم والبتر. ونحن نتعذب في هذه الأرجوحة الجهنمية ما بين اتصال في الروح لا يزال وانفصال في الواقع بتار. من هنا تنبع آلامنا. إننا لا ننسى وإن افترقنا، وليست لدينا هذه العبقرية التي بها نغمر الماضي جميعه في لجة الحاضر، إننا أحيانا نحب أن نحتفظ بالماضي في مكانه بغير أن يختلط بقلق الحاضر واضطرابه.

فهذه الثنائية التي نحيا فيها، ثنائية الاتصال والانفصال هي ينبوع آلامنا. أما حيث يتحقق ثمة اتصال مطلق أو

انفصال مطلق فلا ألم ولا عذاب. لكن الحياة تهيب بنا أنها سلسلة من الاتصال والانفصال حيث يبكى ملايين البشر: من هؤلاء الذين اضطروا أن يبيعوا كوخا عزيزا عليهم كان كل تراثهم، ومن هؤلاء الذين سلبوا عملا أو ابنا أو صديقا أو قلبا كانوا قد أودعوه كل أسرارهم وخلجاتهم، ومن هؤلاء الذين فقدوا شيئا كان يذكرهم بلحظة حلوة جميلة أو فقدوا خطرة جميلة شردت عنهم أو أملا أو حلما... بكل هؤلاء الذين ينفصلون عن أجزاء من وجودهم يزدحم وادي الموت حيث يعبرون مرة وإلى الأبد، وهم يصخبون ويزعقون.

مساء ٢٨ من ديسمبر

منذ زمن بعيد خرجت أبحث عن المعنى في حياتي، منذ خرجت أجوب الأرض، خرجت أبحث عن المعنى في حياتي، فوجدت أمامي بابا مغلقا.

روحي معذبة بهذا الحلم الذين يتراءى أمامي دائما والذي لا يتحقق. إنني في حاجة إلى قوى جبارة منبعثة من أعماق لا نهائية كي أستطيع مواصلة السير. إن الطريق طويل طويل.

الباب المغلق.. هذا هو السر الذي يعذبنى، هذا الرمز الأبدي المجنون يدفع في شراييني صرخات تتلوى بلا منفعة.

وهذا الحلم الذي لا يتحقق يعذبني، يملؤني جنونا... في حاجة إلى قوى جبارة كي أواصل تحركي، كي أواصل بحثي عن المعنى في حياتي، وهذا الباب الملعون لا يزال واقفا أمامي.

والزمن يعبر في سرعة بينما أنا أتأرجح، هذه كل حركتي في الزمان، وأنا لا أزال أحلم، أحلم بشيء عجيب يفتنني وينقذني، وهذا الباب الملعون لا يزال واقفا أمامي مغلقا لا يريد أن يفتح ولا حتى أن يرتجف.

في حاجة إلى أن أجمع شتات نفسي الممزقة، النفس التي مزقتها السنون والرؤى والأساطير والأحلام من أجل أن أشق طريقي من جديد، أجوب الأرض باحثا عن سر حياتي.

٣ من يناير ١٩٤٦

إنني خائف من التعبير. إنني خائف من العالم ومن نفسي أريد أن أحصل على أكبر معرفة ممكنة من خلال التجارب التي خلفها لي الآخرون، ومن خلال تجاربي، وهذه الرغبة هي التي تخيفني من العالم ومن نفسي.

أريد أن أحصل، وأنا انظر إلى أقصى الطرف، فأرى لا نهاية ممتدة فأحس الدوار. وهذه الرغبة التي لا تنطفئ وهذا البحث المرهق عن نهاية في اللانهاية، هو الذي يشقيني، وأنظر إلى عمق أعماق نفسي وإلى العالم المتسع، فأرتعش.

أنا أنشد الهدوء، وسط الصخب والضجيج، أود لو أحصل على السعادة العميقة المنتشرة خلال العدو المجنون، وراء آفاق ما تنفك تتسع حتى لتبتلعني. أنا أحاول الحصول على المستحيل من خلال الممكن، ومن هذه المحاولة ينبثق خوفي.

وعندما نلقي نظرة على ما حسبناه عدوا مرهقا مجنونا، ونرى أنه ليس إلا خطوات بطيئة بالنسبة لحركة الإنسانية العامة. ومع ذلك فنحن نمضي ونحن ندرك أن عدونا ليس إلا حركة بليدة، وهذا الإدراك يصبح منبعا آخر من منابع الشقاء.

وقد نحس ذات لحظة أننا ضحايا العالم وضحايا أنفسنا لكننا ما نلبث أن نتصور أنفسنا أبطالا وعمالقة. ولهذا وحده نقبل العبء الذي يبدو للآخرين أنه تضحية. بل قد يبلغ بنا الأمر أن نموه على الآخرين بأننا نضحي حقا ونحن نعلم في

قريرة نفوسنا أننا لسنا نستطيع أن نحيا إلا هذا اللون من الحياة، وليست الهزيمة مبررا للرجوع، بل هي على العكس من ذلك، باعثا على اقتحام أكثر خطورة وأشد هولا لكي نثبت لأنفسنا وللعالم أننا أهل للانتصار، ولذلك فنحن نعبئ كل قوانا ونشحذ كل ذكائنا من أجل المعركة الجديدة.

٥ من يناير

كيف نصنع حياتنا؟ هذا هو السؤال الذي يلح علي ويزداد الإلحاح حتى يقارب الإرهاق.

هذا الضجيج الثقافي الهائل يزداد صخبا كلما أوغلت فيه، وتتشعب مسالكه حتى لأحس أنني لست قادرا على أن أحصل على المعرفة التي نالتها البشرية خلال تجربتها التاريخية القصيرة فضلا عن الكشف عن آفاق أخرى أكثر غنى وخصوبة.

وأنا وقد وطنت نفسي على أن أشارك الإنسانية أقصى ما بلغته من معارف وعلوم، لأحس أنني أريد أن أستوعب كل شيء، وأن هذا الإحساس ليضنيني ولو أنني أجد لذة في كل اكتشاف جديد أحصل عليه، وفى كل منطقة بكر أجول منقبا عما اختبأ فيها من كنوز وجواهر.

في هذه اللحظة، في تلك المرحلة التي أحس فيها بهذا التيه الضخم وقد وطدت نفسي على أن أحسه بغير أن أقف ولا أن أتردد... في هذه اللحظة أتساءل عن السبيل الذي أطرقه من بين هذه السبل المتشابكة المتكاثرة أمامي.

ومن قبل عانى أوغسطين والغزالي هذه المشكلة في الحضارتين المسيحية والإسلامية، ثم عانى الكثيرون في عصر النهضة، بل كل هؤلاء الذين يحسون في لحظة أنهم بإزاء رحلة عليهم أن يكونوا على وعي باتجاهها. ولكني أحس أن المشكلة اليوم أعقد من تلك التي عاناها هؤلاء جميعا لأنها ليست مشكلة إيمان ولا إلحاد. فحضارتنا لا تكاد تتيح لنا هذا التقسيم الساذج إلى طريقين نؤمن بالواحد ونكفر بالآخر، إنها تعرض علينا كل صورها وتوهجاتها وتطلب منا أن نعيش في تشتتاتها وتناقضاتها إذا كنا نصر على ألا يفوتنا شيء، لم نعد نؤمن بأن الطريق الذي سننهجه في الحياة يمكننا أن نكشف عنه قبل أن نطرقه، بل هو طريق صوفي لا يبدو لنا منه إلا بالقدر الذي نخطو فيه، فدقائق حياتنا هي وحدها التي تكون الطريق وتدفعنا إليه وفيه. وفي وسط هذا الضجيج والصخب والإحساس المتناهي بضآلة الفرد وبلادة

حركته يتساءل الواحد منا " كيف نضيع حياتنا "؟ وإنه لسؤال عجيب، قد يغرينا ما يسببه لنا من حيرة بأن نرفضه ونعلن سخافته، ولكنه يظل يلح علينا كلما بدت هذه المتناقضات التي تجمعها حضارتنا في لحظة زمنية واحدة، حتى ليخشى الإنسان أن يفقد نفسه وسط هذا الصخب والضجيج، وأنا حريص على أن أقحم نفسي في كل مجال وألا يفوتني شيء مما يعرض في هذا المعرض المزدحم: من آثار كاد يعفى عليها النسيان إلى اكتشافات عبقرية ستنبثق في اللحظة التالية.

في وسط هذا الخليط المتناقض الخصب يطلب من الفرد أن يحدد نفسه، أين هو من هذا الزحام، فيتحرك داخل مجال معين، ويتكئ على ذراع إنسان معين، وتسري في روحه رسالة معينة.

إن في نفسي الصغيرة يتبلور هذا الصراع والصخب الممتدان أمامي حتى اللانهاية الشاردة.

٧ من يناير

هذا الفراغ، إنني أفزع منه. كغريق يحاول أن يثبت بشيء لا يراه. وهذا الإحساس بالفراغ أحسه يتبلور في نفسي

شيئا فشيئا، حتى بت أتشوق إلى اللحظة الحاسمة، تلك اللحظة التي طالما تشوقت إليها منذ بدا عقلي يستيقظ، والتي أبدا لا تجيء.

إحساس بالفراغ، وكل ما يحمله الفراغ من فزع، أود أن يستوعبني الفعل الذي له من القوة بحيث يلغي من نفسي كل إحساس بالتافه والسخيف. إنني أبحث في جنون عن هذا العمل، عن هذا الفعل العبقري الذي يستوعبني، فعل عظيم عنيف هو وحده الذي يستطيع أن يستوعبني، فيذوب فيه هذا الإحساس اللامتناهي، ويتسرب في جوانبه كحركة حية إيجابية.

رسالة في الحياة أركز عليها كل جوانب نشاطي، فينتهي عهد هذا التشتت، وتلك العربدة الروحية المجنونة. رسالة أدأب على تنميتها في صبر وجد وأناة، وأسخر كل جوانب حياتي الأخرى في سبيلها، بهذا أحس بوجودي. هذا الفراغ يدفعني إلى أن أضرب في مسالك معتمة علني أحصل منها على شيء، فأجدني قد قفزت قفزة أخرى في الفراغ، فأرتد مذعورا، إنني في قمة من التوتر الروحي، أحس كأنما

أتأرجح في عنف. أريد أن أندفع في النظام، أن أتحرك نحو هوف، أن أعلق بشيء، فقط له القدرة على أن يحملني.

٩ من يناير

إنني أعلم أنني أقامر بحياتي، بل لقد قامرت بها. إن الحياة مصادرة إذا آمنا بها نسير، فإذا داخلنا الريب ذات لحظة فإن كل شيء يميد تحت أقدامنا. مثلنا في ذلك مثل ذلك الحواري الذي استطاع أن يمشى على الماء طالما كان يتحرك بالإيمان، فلما ساوره الشك كاد يبتلعه الموج.

إن كل من ينظر في الطريق الذي تسير فوقه قدماه ولا يعود ينظر إلى الأمام، إنما يعرض نفسه للغرق، لهذا قلت أن الحياة مصادرة. وأنها حياة وحدة. ولقد قامرت بحياتي منذ اليوم الذي أمسكت فيه قلما لأكتب بعض أشعار ركيكة متكسرة وقامرت بها يوم رضيت أن أدرس الفلسفة، وها أنا اليوم أمضي في هذه المقامرة وأنا أعلم أنني لم أقامر بحياتي عبثا، إن الطريق الذي غامرت بالسير فيه قد وهبني اليوم قوى لأن أسخر وأتهكم وأصيح وأهزأ بل وأعلم نفسي والآخرين.

وأنا أعلم في وضوح أن طريقي اليوم هو العمل الفني، العمل الفني الذي أخلص له بكل روحي وبكل حياتي وكل كياني، وأنني قد ألقيت بنفسي في هذا الموضع من التراث البشرى، وقامرت بكل ثروتي بغير أن أحتفظ بأي رصيد.

أنا أدرك أن هذا يحملني كثيرا من المسئوليات، وهذا ما أريده تماما. أريد أن أكون إنسانا مسئولا أمام نفسي وأمام العالم والتاريخ، ولن يمكن أن يتم هذا إلا بان أتبلور حول شيء نسميه نحن الناس بأسلوب حياتنا أنه نافع وربما جميل وخير عظيم. إنني أدرك إنني أعيش في يأس كبير لكنني أعلم أيضا أنني أحمل في داخلي روحا فتية وتهكما كبيرا ومشاركة تدمجني مع الإنسانية جميعها فيستحيل هذا اليأس الكبير إلى طرقات عنيفة متوالية تؤذن بالنور الجديد.

وأنا أعلم أن الربح لن يكون عاجلا، بل قد يكلفني كثيرا من راحتي واستقراري. ومع ذلك فلست أريد أن أكون ذلك الشاعر الذي يقف معجبا بالبطل لأنه لا يستطيع أن يكونه. إن المعجزة الحقيقة في التاريخ هي قيام الشاعر البطل، لهذا يعجبني كثيرا هؤلاء الملوك الذين كانوا يكتبون الشعر مثل ابن المعتز وفريدريك الأكبر. ولهذا نجد المؤرخين يحاولون

دائما أن يبرزوا الناحية الشاعرية والعاطفية في سير الملوك والقواد وأبطال الحروب ومن ناحية أخرى يحاولون أن يحيلوا حياة الفنان الذي يتناولونه إلى سلسلة من أعمال البطولة الضخمة ذلك لأن الشاعر البطل هو معجزة التاريخ.

١٣ من يناير عام ١٩٤٦

كان القمر الليلة جميلا هائما في السماء يعاني تجربة وحدته الخالدة، وكان الجو رقيقا والسماء صافية، وكنت في حاجة إلى التعبير. فكلما رقت نفسي ذات لحظة أحسست حاجتي إلى التعبير، وبدوت لي يا صديقتي من خلال نقاب رقيق شفاف فتمتلئ نفسي بشجي أسيان.

وبدأت معاني هذه الرسالة – التي لن تصل إليك – تنتظم في نفسي. كنت أدرك أني لن أبعثها إليك، غير أنى كنت أنظمها لك طوال سيري مع القمر الناعم الندي، وأنا أفكر كيف أننا نخدع أنفسنا بين حين وحين بأننا ما دمنا لا نقول للآخر شيئا ولا نفعل معه شيئا إذن فقد ألغينا كل علاقة بيننا وبينه. غير أن تجربتي المجنونة معك علمتني غير هذا، علمتني أننا قد نعيش مع الآخر الذي لا نراه و لا يبدو للعالم أن ثمة صلة لنا به – أكثر وأعمق مع أقرب مما نعيش مع

أقرب الناس إلينا ممن نراهم في كل لحظة ونتحدث إليهم في كل دقيقة ونرتبط معهم بمصالح واتجاهات.

كنت أدرك أن هذه الرسالة لن تصلك، وأن هذه اللحظات لا تستمد رقتها الأسيانة إلا من هذا البعد الذي فرضته بيني وبينك. ولكنني كنت أدرك أنني أعيش في سر كبير لتجربتي، وأن الفصل بين الفكر والفعل فصل كاذب، نقصد أن نخدع به الآخرين فحسب، بينما نحن في الداخل نعيش حياتنا الخاصة مستقلة عن كل منطق أو فهم.

ومنذ ثلاثة أيام كنت أحتفل – فيما بيني وبين نفسي وعلى غير إرادة منى – بانقضاء عام على فراقنا يا صديقتي، وكنت أخادع نفسي بأن هذه الذكرى لا وجود لها طالما لم أمنحها الكيان التعبيري، والواقع أنني كنت أخشى الاعتراف التعبيري بوجودها، ذلك لأن التعبير قد يطلعني على أشياء كانت مجرد سديم وجداني تائه في نفسي، ومع ذلك فقد كانت كل دواعي هذا العيد الجنائزي موجودة في نفسي، بل لقد كنت أستعد له منذ شهر أو أكثر. وما أقبل هذا الشهر حتى جعلت أعد الأيام عدا إلي أن كان اليوم العاشر منه وقضيت اليوم في عملي وقراءاتي بينما كان الاحتفال قد

بدأ يصخب ويزدحم في نفسي، فالصور تتوافد والأحاديث تقبل، والحب والكره ينتشران في نفسي، وعجبت من سر حاجتنا إلى الدورة في نفوسنا كأنما لانفعالاتنا و ذكرياتنا نظام فلكي. فما يمر العام حتى تنبثق آلاف الذكريات وآلاف الأحلام وآلاف السخافات، ويمضي العيد لكنه ينتظر انبثاقه في العام الجديد.

وأمضى في الحياة وتمضين، ونحاول أن نغالف أنفسنا، ونساعد أنفسنا على ذلك بأن نقنعها أن هذا هو السبيل الوحيد للحياة الواقعية البعيدة عن الخيال وعن التأثرات العاطفية المتطرفة..ونمضي ونحن نجمد أنفسنا قليلا قليلا، ونتعلم كيف نضحك من جديد، وكيف نتفادى من كل ما من شأنه أن يخل بتوازننا. ومع ذلك فنحن نظل نحس أن ثمة ركنا قصيا من نفوسنا، وكأنه يحاول في بطولة أن يقنعنا بأن الحياة السعيدة كانت أمامنا مرة واحدة ثم فرت، وأنها بفرارها لن تعود. وأن ثمة صلة خفية بين هذه السعادة التي فرت وبين النجاح الذي نلقاه اليوم في حياتنا والكفاح الذي يبدو أن لا صلة له على الإطلاق بما حدث منذ سنوات، وهكذا نظل

نحس أن شيئا ينقصنا، شيئا عزيزا ضاع منا، وأن فرحنا لن يكون كاملا.

وكلما أتى المساء وذهبت إلى مخدعك يا حبيبتي، سأتلكأ حولك ذات لحظة ثم أنصرف إلى كهفي المنزوي كي أعود في الليل الجديد. أما حيث الفرح، حيث كل شيء يبعث الحياة والنور في قلبك، فسأنزوي بعيدا، حتى إذا اختلجت نفسك ذات لحظة بخلجة حزن أو ألم، خلونا إلى بعضنا وهمس أحدنا للآخر كلمات لا يفهمها غيرنا ثم سرعان ما يعود كل منا إلى مكانه، أنت إلى الفرح والنور، وأنا منتظر في الزاوية المقدسة ماضيا في صلاة لا تنقطع: أحبك أحبك أحبك، إلى أبد المرات.

٢٠ من فبراير

اليوم أراك يا بنى تجزع... لقد حسبت أن كل شيء انتهى لكن أبدا! أن شيئا قد انتهى كي تبدأ أشياء... وغدا ستقتل الألفة كل شيء، كل شيء يا بنى. الجزع واللذة والألم والدموع. وذات يوم ستحس أنك تدور في بلد تعرفه جيدا، أركانه وزواياه كما تعرف مدنه وطرقه وميادينه. ولم يعد ثمة شيء يفجؤك أو يتربص بك في زاوية هنا أو ركن

هناك. وسترقب الأطفال الصغار وهم يمشون في غير حذر، والغرباء، وهم يخطون في وجل، لكن ستغلب عليك في لحظات ابتسامة من السخرية المريرة حين تراهم يصطدمون كما اصطدمت منذ أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة، حين كنت طفلا وغريبا.

أول مارس

عندما نكون في معركة مع عدو حسبنا أننا سنهزمه في سهولة، ثم وجدناه يقاوم ويظل يقاوم، فإننا نضطر أخيرا – مهما بلغت عداوتنا له – أن نقف أمامه في احترام وإجلال.

هكذا يكون شأننا مع عواطفنا التي ظللنا نقاومها ونحاول وأدها ومع هذا فإنها تظل تصارع في سبيل وجودها... ذلك أنه تأتي أخيرا اللحظة التي لا نملك فيها إلا أن نكف عن الصراع ونقف مأخوذين أمام هذه العواطف الإنسانية الحية. في احترام وإجلال.

إننا حين نرى هذه العواطف التي ظل يقاومها صاحبها ويقاومها الآخر الذي أثارها ويقاومها المجتمع وتتضافر كل العوامل الداخلية والخارجية على تحطيمها، ورغم هذا فإنها

تظل في تشبثها بنا... حين نرى هذا لا نملك إلا أن نحس فجأة باحترام عميق نحو نفوسنا البشرية، وبقداسة لا حد لها.

وإذا كنا قرأنا من قبل قصة ذلك القاضي الذي كان لا يخاف إلها ولا إنسانا ومع ذلك فإن أرملة ظلت تلح عليه حتى اضطرته أن ينصفها، فما بالنا نحن أمام عواطفنا الملحة التي تظل متشبثة بنا بغير معين، فلا العقل ولا منطق الحوادث ولا الزمان يقف إلى جانبها ومع ذلك فإنها تظل في صراعها النبيل لا تعرف راحة ولا تهادنا. تتحين كل لحظة، لا من أجل أن تعلن وجودها في أعماقنا فحسب، بل من أجل أن يكون لها السيطرة علينا أيضا، غير عابئة بمقاومتنا.

فبعد أن يدوم هذا الصراع أكبر مدة ممكنة، نجد أنفسنا فجأة وقد وقفنا مشدودين أمامها، ويغمرنا إحساس بقداسة الإنسان وإيمان عميق بنبالة الطبيعة البشرية، ونبدأ نعيش لحظات كلها دهشة، نحدق في نور باهر، ونغمغم هاتفين "لك المجد أيها الإنسان، لك المجد أيها الإنسان ".

٢٠ من مارس

أحس الليلة خطورة ما أكتب....

الألوان تعود إلى عالمي المنطفئ، كأعمى ألف الظلمة وألفته، وجد نفسه فجأة مفتح العينين فانبعثت أمامه الصور والمرئيات كأنما من العدم ومن اللازمان. إن العالم يزدحم أمامي فجأة بكل ما هو غريب ورائع ومريع.

إن حياتي كانت حتى الآن، وستكون حتى موتي، محاولة طويلة قاسية لتوضيحها. وإنني لأحس الليلة أنه ينبغي أن أبذل جهدا أكثر حتى تتضح لي نفسي أكثر وأن ينكشف هذا العالم من حولي.

إنني أحصل على كل حقيقة شعورية بعد معاناة ألم هائل، وإن أول خطوة أخطوها في صراحة وقوة نحو توضيح ذاتي هو إنني يجب أن أحمل النير، وأن أتألم. تلك هي المقولة الأولى...

إنني أعيش بأعصابي، وأن هذا يكلفني الكثير، حتى لأرهق أشد الإرهاق، ثم أراني منبعثا في نشيد صاخب مجنون.

أحب أن أرى الناس سعداء أحرارا، في غير عوز ولا هم ولا ضيق أحب أن يجد الناس أقواتهم وتخلو حياتهم من

الآلام الحسية البغيضة، أحب أن يفرح الناس وأن يهنئ بعضهم بعضا و أن ترتسم الابتسامات على شفاههم.

وأعلن من جديد أنه يجب أن نعلن وجودنا في قوة وصرامة وصراحة. يجب أن نرى الآخرين في أنفسنا وأن نرى أنفسنا في الآخرين. أن نعيش كل شيء، مهما كلفنا ذلك، بأعصابنا ودمائنا... الفرح والقوة والحزن القاتم والانكسار والمجد والشهوة والكره والحب، كل شيء في الوجود يجب أن نوجد فيه، وهذا لن يتم إلا بالألم.

يجب أن نعيش مع الأحياء جميعهم، مع الوجود كله. وأن نعرف كل ما يمكن للبشرية أن تعانيه من قذارة وطهارة، والدرجات الكثيرة التي تربض بين كل متضادين، وأن نقفز الهوات التي تفصل بين كل متناقضين، ونعبر البحار ونجوز القفار، ونوغل في القاع والأوحال، ونرتفع حتى السماء والضباب. يجب أن نعيش وأن نندفع بحياتنا في خضم الوجود المضطرب حينا الهادئ حينا. يجب أن نحيا ونتمتع ونتألم. نخاص حينا ولا نكترث حينا، نأكل حتى تمرضنا التخمة ونجوع حتى يهددنا الموت، ثم نجمع هذا كله في صور ذات إطارات أو بلا إطارات – حسبما نحس وضع

نفوسنا – ونراعى ترتيب الألوان ووضعها حينا، ولا نراعى شيئا حينا. ينبغي أن نعلن وجودنا.

ونقدم للناس هذا جميعه، بلا وجل ولا خوف، وبلا إحساس بالخطيئة أيضا. في الناس نواح طيبة ونواح سيئة، هذه جميعها ينبغي أن نعرفها وأن تكون فينا، نحب حتى الأبد ونكره حتى الموت. يجب أن نعيش الحلم والأسطورة، الواقع والحقيقي واللامعقول، وأن نحطم كل ما نعرف من حدود كي نعاني آلام حدود من جديد، وأن نتفه في نظر الآخرين حتى نتألم أروع الألم وأن نعظم في نظرهم حتى يطالبونا بأكثر مما نملك. وأن نبارك وأن نلعن... بهذا سنرضى جوانب الناس الطيبة والسيئة، وكل ما يعرفونه جيدا فيما بينهم وبين أنفسهم وينكرونه تماما أمام أشد الناس قربا لهم. لكننا سنكون قد أوضحنا أنفسنا وأعلنا وجودنا ونحن نغمغم هاتفين " لك المجد أيها الإنسان، لك المجد أيها الإنسان".

٢٦ مارس

ما أعمق الفرق بين أن تتردد في نفسك أصداء انكسار، وأن تتردد في نفسك أصداء انتصار. إن الحركة الأخيرة في

التجربة يجب أن تكون الانتصار، لأن الفرح هو وحده علامة النهاية كما يقول برجسون بحق.

إنك لا تستعيد النهاية المريرة إلا من أجل أن تألف الإحساس بالانكسار فيقل – بعض الشيء – رد الفعل. وأنك لتبحث عن التبرير في أثناء ذلك من أجل أن تجد تفسيرا يبدو لك معقولا يجعل من الآخر أو الآخرين مخطئين أو سخفاء ولكنك تحس في النهاية أن الحركة التي كنت تريد أن تبلغ بها نهايتها قد تعطلت.

أما الانتصار، هذا التحقق الإرادي الرائع، فهو وحده الذي يصلح أن يكون نهاية بحق. وعندما تخبرك القصة أن البطلين قد تزوجا، اعلم أن تلك نهايتها. فالسعادة لا يتحدث عنها، إن الفرح سر، أما التاريخ فلا يكتب إلا بالدماء، والأبطال لا تكللهم إلا الأشواك. أما الفرح فهو علامة النهاية، وهذا هو ما حرص بيتهوفن العظيم على أن يعلنه للعالم فجعل أنشودة الفرح هي الحركة الأخيرة في سيمفونيته الأخيرة.

أول يونيو

جاءني الليلة خطاب من صديقي م. يقول فيه:

عزيزي. لقد مات (بان) إله الرعاة الذي عبده الإغريق أجيالا طوالا، مات في أفئدة سادة الفكر قبل أن يموت مع طيات التاريخ. والى صديقي الحائر القلق من قلب به جذوة الحب الحزين المضطرم مع اضطرام آلامك، الهاتف مع منازع نفسك، المشوق إلى أن يشعر بقلبك ما يشعر بقلبه فتحمل عنه ما يحمل في أعماق نفسه من هدوء غرد سعيد. فقط – وإن كان لا يشعر أنه واسع القلب كما ينبغي – يشعر أن القلوب الكبيرة لا يمكن أن تسعد لأنه تنقصها سعادة الآخرين، يشعر أنه لا يمكن أن يسعد وهو يحس في أعماق نفسه بأن نفسك المناضلة المكافحة كالسفين وقد أخذته الزوبعة وهو صريع كفاحه لا نسمع منه إلا همهمة بعيدة هي أثر كل ما نحس به من نضال رهيب.

فإلى أن تبلغ الشاطئ و إلى أن تصل أيها الجواب إلى الميناء ميناء الاستقرار والنصرة، سيبقى صديقك مشوقا قلقا محبا آملا أن تصبح حياتك لحنا منسجما. وسيبقى صديقك ساكنا عن التهنئة العميقة إلى أن يبلغ تهنئة أعمق.

٧ من يونيو

ألهميني يا روح منتصف الليل، فكثيرا ما يخيل إلي أنني كهذا الإنسان الذي أرادت الآلهة القصاص منه فحرمته ظله.

وفى لحظة يائسة – حجر فيها النوم أجفاني – دوى صوت رهيب يقول: انتحر، انتحر، وفكرت أن أقوم لأقرأ عن هيجسياس ثم أكتب وثيقة أعلن فيها تفاهة الحياة. لقد هربت إلى الريف، ثم عدت إلى المدينة وإلى صخبها وضجيجها، وفى أثناء عودتي كانت ثمة فكرة تملأ علي الزمان، ذلك أن اقذف بنفسي بين عجلات القطار. وحاولت أن أقرأ شيئا من أشعار الأخوات الثلاث برونتي " لكنني لم أستطع، فقد كانت الفكرة تلح على. وذهبت في آخر العربة ونظرت ما بين العربتين، ورأيت العجلات تدور في سرعة كأنما تغريني نحوها. وسمعت دوي القطار المتكرر المنتظم، وأحسست بالدوار. فعدت إلى مقعدي بسرعة. وقمت أطل من نافذة القطار، ورأيت الطبيعة تترامى أمامي، الحقول بجمالها وسواقيها والجبال من بعيد. وأحسست بقوة الحياة. وفى لحظة تذكرت كل شيء، كل ماضي وكل حياتي، وارتفع صوت عجلات القطار، وتراءت أمامي صورة جسدي وهو

يقطر دما، ثم غابت الصورة الدموية بين الجبال المترامية والحقول النشوانة. وذهبت أعدو نحو باب العربة من جديد، ونظرت إلى العجلات وهى تتحرك حتى أغرقت فيها عيني، وفجأة سقط كتاب الأخوات الثلاث مني بين العجلات. وجفلت وحزنت على صديقي الكتاب ورجعت وأنا أحاول أن أطرد من سمعي ذلك الدوي الذي ينبعث من القطار وعجلاته الضخمة.

ووصلت إلى المدينة العظيمة، وواجهتني بكل صخبها وضجيجها... وعبثا حاولت أن أنام، وذكرت ما قاله هايني: إنه ليس في الإمكان أن نكتب تاريخ حياة عن " كنت " لأن كنت لم يكن له حياة ولا تاريخ، إنه لم يعرف اللمسات الإنسانية الدافئة. وبدا لي " كنت" ذلك العملاق المارد إنسانا مسكينا. كنت على استعداد لأن أبيع مستقبلا كمستقبل صاحب الثورة الكوبرنيكية في الفلسفة مقابل لمسة إنسانية واحدة.

أريد أن أمتنع عن كتابة هذه اليوميات. فهذا الوعي بالذات وهذه الخطيئة، خطيئة التعبير التي أقترفها أكبر أسباب قلقي. فليس سوى جبار ذاك الذي يجابه هذه الحقيقة المرة ثم لا يموت.

لذلك أعتقد أنني لم أر الحقيقة تماما، بل كما رأى موسى الله كما تروي القصة التوراتية في شكل غيمة وضباب ثم عاد ووجهه يلمع، كذلك لم أر أنا هذه الحقيقة إلا من بعيد في ضباب وغيوم. ويبدو أنني أعود وفي نفسي لمعان غريب. إن اليهود لم يستطيعوا أن ينظروا إلى وجه موسى لشدة لمعانه فوضع عليه برقعا، وأنا أعلم أن الناس لا تستطيع أن تنظر إلى ذلك اللمعان النقي الذي أ حسه، بل ولا حتى أنا، لذلك كان لابد من البرقع، ذلك التعبير الذي يخفي وراءه ما لا يمكن التعبير عنه. ولن يراني الناس إلا خلف ذلك التعبير فيحسون بأن ثمة لمعانا هناك. ولقد عاد موسى من عند الله ومعه الوصايا العشر، بماذا تراني أعود الآن من ذلك الجبل الروحي الذي كنت به؟ لست أدرى لماذا عقدت هذه المشابهة بيني وبين موسى وقد اندفعت فيها وأنا فرح بها.

10 من يونيو

لست وحيدا في هذه القمة المخيفة، بل معي صديقي ت. أرسل إلي بعد ما غادرني، الرسالة التالية:

.... إن الحب خطيئة، ولكن الخطيئة مرتبطة كل الارتباط بالإنسان من حيث هو كذلك، إنها خطيئة ضرورية

لتركيبنا الروحي ضرورة الماء والهواء لتركيبنا الفسيولوجي. الحب مسند نظن أننا نستطيع أن نسند عليه ظهورنا ونحن ندافع ضد هذه العناصر المعادية... هو متكأ نحاول أن نتكئ عليه لنرتاح بعد رحلة طويلة شاقة قطعناها بمفردنا في طريق جاف تغمره حرارة قاسية، أجرد وعاطل من كل نبات. طريق وكأنه بحر من نار. الحب... لا يلبث أن يعود إليه الإنسان ليشعر ببعض الدفء الروحي بعد ليل بارد قارس مظلم إلى أبعد حد، وقد امتلأ أشباحا وخيالات مخيفة بشعة. وبعدها، بعد أن نستقر لحظة، نعود إلى الليل إلى الطريق.

ولكن ليس للحب هذه الضرورة، هذه الضرورة المرتبطة بضعفنا العاطفي الروحي، هذه الضرورة مرتبطة بنوع من الطفولة التي لا يمكنها الحياة إلا في جو العناية والرعاية والحنان. لكن الإنسان بعد تجارب قاسية مريرة هدامة، ينتقل إلى دور الرجولة الروحية، حيث يندفع إلى الحياة بمفرده، يندفع إلى الحياة نشيطا قويا مغامرا. هنا يصبح الحب عبئا ثقيلا إلى أبعد حد. وكل حب يستمر إلى هذا الدور من الأدوار الروحية يصبح فريسة هذا النشاط

وهذه القوة بعد ما كنا في ضعفنا فريسة له. إنه يستحيل إلى فريسة تعطى كل ما لديها لهذا الرجل الفرد حتى يقوى على السير إلى أعماله الضخمة التي تتطلبها رجولته وقوته ورسالته.

فالحب إذن شيء يرتبط بطفولة تأبى إلا أن تعيش معنا دائما ونأبى إلا أن نحتفظ بها ثم ننتقل إلى مرحلة كلها نور وكلها تضحية وكلها عناء، مرحلة الشعور والوعي النقي الصافي، هنا لا ظلام. ما هي الطفولة الروحية إن لم تكن مرحلة اللاوعي الروحي، مرحلة الاختلاط والاندماج والاعتماد على الغير، بينما الرجولة الروحية هي مرحلة الوعي والشعور الذاتي، وهذه كلها تتطلب الاعتزال في برج الرسالة التي توضع في عنق كل عبقري، هنا نتحرر من الضيق ومن هذه الآلام التي تنبع من القلق وعدم الطمأنينة وعدم الاستقرار.

إن الحب عصا نعتمد عليها ونحن نتخبط في الظلام، في مكان لا نعرفه بعد... وحين نخرج إلى النور ونخرج إلى الطريق الواضح نلقى بعصانا جانبا. ونسير في مرح وفى سعادة. سعادة منطلقة مندفعة ودافعة. والحب ما هو إلا صلة

تحتفظ بالرجل في دائرة الطفولة التي ترعاه فيها امرأة، امرأة لا تعرف الرعاية ولا الحنان ولا العناية. لكن الرجل يستفيد بالحب. بهذه الحيلة، بهذه العصا، حتى يصبح ولا حاجة له بها يلقيها إلى حيث يتناولها من هو في حاجة إليها.

أول يوليو

عندما أقبل إلى هذا الوجود كان كائنا مستبهما، ثم أخذ يتميز شيئا فشيئا. وكان أول خطوة خطاها من أجل أن يتميز هو أن يثور على هذا الاستبهام. وكان معنى هذا أن يقوض دعائم هيكل رهيب يصلي فيه الناس جميعا كي يبني لنفسه وبنفسه هيكله. لكنه خطا الخطوة الأولى فحسب فذهب وباع كل ثروته، بل إنه تركها كما ترك إبراهيم أهله و عشيرته كي يتغرب. أما كل محاولاته الجبارة التي قام بها كي يحصل على شيء فقد باءت بالفشل، وباءت بالفشل لسبب هام، ذلك أنه كان يريد... بغير أن يثق.

.... فهو لا يمكن أن يبدأ إلا إذا وثق بنفسه أولا وبالإنسانية، إذا آمن بالحياة والوجود. وليست المشكلة مشكلة إيمان بحقائق أو وقائع بقدر ما هي مشكلة إيمان بقيم، قيمة التفاصيل الداخلية في هذا كله من حركات واتجاهات. وأكثر

الفلاسفة تعرضوا لمشكلتي الوجود والمعرفة لكنهم كانوا يقتربون من مشكلة القيمة في حذر كبير، هذه المشكلة التي هي نتيجة صدام بين الوجود والمعرفة. بعضهم يلغيها وبعضهم يحلها على أساس فردى أو اجتماعي لكن واحد من هذه الحلول لم يطمئنه حتى الآن. وهو يعلم أن مشكلة القيمة مرتبطة بمشكلة الغاية، وهو لا يرى غاية في الحياة خارج الحياة، فقيمة الحياة مستمدة من الحياة نفسها. وهنا تظهر مشكلة الفرد، الفرد الذي يعرف العلاقة الضرورية بين الإمكان والمحال لكنه لا يهتدي إلى ممكناته لأنه لا يعرف محاله. لقد كان مستريحا حين كان يعدو في الأرض المنطلقة الفسيحة، أما حين وصل إلى المدينة ذات الطرق، فقد انطلاقه لأنه لا يعرف أيها يأخذ.

ولقد سارع ودون لحظات حياته الواعية القصيرة، وهو يعلم جيدا أنه ما أحس بنفسه إلا يوم بدأ يثور ويفقد طمأنينته التي رجاها له المجتمع. لم يكن شكا من هذا النوع الأكاديمي، ذلك الشك الذي "يمكن" لرجل مطمئن أن يتحدث عنه وهو جالس إلى مكتبه وفى يده ورق وقلم، بل كان شكا حيا صاخبا. وقد فشلت كل محاولاته لأنه كان يحيا بلا يقين،

وقد حاول عبثا أن يجد اليقين، بل وجد نفسه أخيرا ملعونا بتلك اللعنة التي انصبت على آدم حين أكل من شجرة المعرفة، وكلما أوغل أصبح – مثل هاملت – فاقدا قدرته على أن يعمل لأنه لا يستطيع أن يتحمس أو يندفع.

إن هذا المساء لمساء عجيب. فقد ظلت العاصفة تعوي طوال هذا اليوم وتحمل معها غبارا باردا فيه ذرات كثيرة من الرمل والحصى والتراب. وما أقبل الليل حتى جلس إلى غرفته وحيدا يقرأ كير كجارد ويقرأ تاجور، وهو يعجب كيف اجتمع الدانمركي مع الهندي في مصر. وكان يجد عزاء في هذه الكلمات، عزاء لأن الدانمركي كان مثله فاقدا قدرته على اليقين، ولأن الهندي كان في بعض أبيات من الشعر الرائع يشرح ويوضح له تجربة إنسانية أخيرة مرت به. كان في هذه الفترة المخيفة، فترة الرعب والرعدة، التي تسبق كل إيمان أو التي تظل حتى ينتهي الفرد. فهو يستطيع أن يلخص الأعوام الاثنين والعشرين التي عاشها بأن يضعها تحت هاتين الكلمتين.. رعب ورعدة. وكان كثيرا ما يتعامل في العالم الروحي بنفس الطريقة التي يتعامل بها في عالم المادة. وكان إنسانا أنانيا في أول أمره، يريد ـ كالطفل ـ

أن يأخذ دائما. ولما وصل – بعد جهد – إلى مرحلة ظن فيها أنه يستطيع أن يعطي، كان يرى من حقه أن يقدم للناس وضعا ليس خياليا ولا مستحيلا بل وصل إليه هو بنفسه. فكما أهدى فتاته كتابا ذات يوم ظن كذلك أنه يستطيع أن يهديها ما وصل إليه في حياته الروحية، لكنه نسى أنه لم يستحوذ على تلك الحال بثمن بخس ، بل دفع في سبيلها كل لحظة من لحظات حياته، ومع ذلك فقد أراد أن يهديها ذلك إهداء بلا مقابل.

وهو يقرأ تاجور، فيقرأ عن هذه الفتاة العمياء التي قدمت له عقدا جميلا من الورد على ورقة من أوراق اللوتس، وكيف قال لها: إنك عمياء يابنتي مثل الورد الذي تهدينه لي، إنك لا تدرين شيئا عن جمال هذا الورد الذي قدمته لي. ويقرأ عن ذلك الحب الذي كان سرا متدفئا في قلبه، فلما أقبلت أخرج لها السر كي تحتفظ به في قلبها وتدفئه بحنانها لكنها لم تتقبله فإذا هو ملقى على الطريق كطفل نزعت حواجبه يحدق في ضوء الشمس. ويظل يقرأ ويقرأ وهو يحدق في فراغ المستقبل، ويزعجه أنه سلم كل ما لديه، أتراه يمكن أن يحصل على شيء؟

لقد أمضى ثلاثة أيام من أعجب أيام حياته. أما اليوم الأول فقد أمضاه مع صديقه في الجبل يقرأ طاغور، وللجبل في حياته أثر ضخم. أما اليوم التالي فأمضاه بحديقته منفردا يقرأ " الرعب والرعدة " و الإيمان الذي يتطلع إليه كيركجارد. أما اليوم الثالث فقد جلس يفكر في تجربة للصمت يقوم بها.

يقول كيركجارد إن إبراهيم قد صمت لأنه كان يعلم أن أحدا لا يفهمه، لا ليعازر ولا سارة ولا إسحق، أما هو فسيصمت لأنه لا يفهم نفسه. إن إبراهيم لو قال بما سيفعله على قمة جبل الموريا لليعازر أو سارة أو إسحق لضحكوا منه، أما هو فيضحك من نفسه. لقد كان لإبراهيم الإيمان، الإيمان الذي يحمله على القيام بعمله رغم عدم فهم الناس له. أما هو فقد قام بحركة التسليم اللامحدودة، وهو في حاجة إلى أن يكون فارس الإيمان، أم أن الطريق الذي سار فيه حتى الآن قد أبعده نهائيا عن إمكانية الوصول إلى مثل هذه المرحلة، وفرض عليه أن يظل يحيا في مرحلة الرعب والرعدة! وهو لا يدرى كيف سيصل إلى الإيمان، هل سيهبط عليه من السماء ويلقى في قلبه إلقاء كما حدث للغزالي منذ

عشرة قرون؟ أم هل تراه سيظل يحيا في رعبه ورعدته، ويحاول أن يهرب بأن يتحدث بعيدا عن نفسه؟ ربما يصبح عالما يكسر الذرات أو تاجرا يجمع الأموال أو شاعرا يكتب القصائد، لكن هل يستطيع أن يقبل على شيء من هذا بغير أن يؤمن به؟ لقد حسب الصعوبة في طريقة التنفيذ، فإذا الصعوبة في تصميم الطريق نفسه.

وأنه ليخشى أن يكون تطلعه نحو الإيمان نوعا من الشيخوخة المبكرة رغم ما يقوله كيركجارد من أن إيمان إبراهيم كان سببا يحفظه مع سارة امرأته في شباب دائم. فهو يذكر يوما آمن فيه بحياة القلق، واعتبر التخلص منه موتا واستسلاما سواء للنور أو للظلام. فهل تراه سينتهي إلى الإيمان بالقلق! إنه ليعلم أن عنده صبرا عجيبا، منذ كان في صباه يجلس الليل كله يدون قصة ألفها في مئات الصفحات ثم يمزقها ليكتب غيرها، وهو يخشى أن تكون هذه المحاولة علامة على نفاد صبره.

وأنه ليتساءل عما إذا كان هذا القلق سببه معرفة الكثير أم معرفة القليل. إن ما يثق فيه – إن كان على ثقة من شيء في هذه اللحظة – هو أنه قبل أن يعرف كان مطمئنا، فلما

خرج إلى حياته الواعية انتابه القلق، إنه يحس إنه لا يعرف إلا القليل، وأن هذا القليل قد زلزل حياته، وأنه مهما عرف فلن يعرف إلا القليل.

يبدو أن الإيمان لا يمكن أن يخضع للمعرفة، وهو يريد أن يخضع إيمانه للمعرفة، في هذا تربض مشكلته الجبارة التي منها يرتعب ويرتعد.

من أصداء المساء الأخير

المساء الأخير

عرض وتحليل

دكتور عز الدين إسماعيل

لو شئت أن أضع عنوانا آخر لكتاب الأستاذ يوسف الشاروني الأخير بدلا من العنوان الرومنتيكي الذي وضعه الكاتب له و هو "المساء الأخير" لاخترت له هذا العنوان: "الفنان وأزمة التعبير" ، لأدل بذلك على القضية التي يعالجها هذا الكتاب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، والتي تعد بحق أرضية كل ما فيه من خواطر وأفكار. والكتاب في شكله الظاهري مجموعة من الخواطر واللمحات. تطول أو تقصر، وتحمل عناوين في بعض الأحيان: وتخلو من أي عنوان في أغلب الأحيان.

ومن غير المألوف لدينا أن تصنع مجموعة من الخواطر كتابا، والكتب التي لها هذا الطابع قليلة جدا في أدبنا. فقد ألفنا أن يكون الكتاب رواية أو قصة أو مجموعة

من القصص القصيرة أو أن يكون ديوان شعر أو مسرحية، أو أن يكون بحثا منهجيا لموضوع بعينه. و"المساء الأخير" ليس شيئا من هذا كله، وليس من السهل كذلك حسبانه كتاب ذكريات أو اعترافات، فنحن لا نستفيد منه المعرفة بحقبة تاريخية عاشها المؤلف، كما لا نستطيع التعرف منه على كل جوانب شخصيته. فماذا يمكن إذن أن يكون؟

إذا نحن نظرنا إلى الكتاب من ظاهره فهو كما قلت مجموعة من الخواطر، وإذا نحن نظرنا إلى هذه الخواطر في مجملها تمثلت أمامنا "صورة" مجسمة لقضية التعبير كما يعيشها الفنان ويشعر بها ويعبر عنها. فهي وإن كانت خواطر مفرقة ما زال يجمعها إطار شعوري واحد.

على أنه من السهل تصنيف هذه الخواطر بداءة في بابين مستقلين ومختلفين أشد الاختلاف. وسوف نحاول أن نتبين عناصر هذا الاختلاف قبل أن نناقش القيمة الأدبية لهذا الطراز من التعبير.

وأول ما نلاحظه في مجموعة الخواطر الأولى من الكتاب أن التعبير فيها ليس حرا حرية حقيقية. إنه جميل ومنمق، وقد نستطيع كذلك أن نقول إنه شاعري بمعنى من

المعاني، ولكن هذه الصفات كلها، وما قد يمكن إضافته إليها من صفات في نفس الاتجاه، لا تكسب التعبير في هذه المجموعة إلا نوعا من الحرية النسبية.

ولست أعني هنا بحرية التعبير الانطلاق إلى شتى المواضيع وإفصاح الكاتب عن رأيه الصريح في هذه المواضيع، وإنما أعني الحرية عندما تكون عنصرا أساسيا في التعبير الفني. ومرة أخرى لا أقصد بالحرية هنا الانطلاق من التعبير الفني، فإن هذا الانطلاق أحرى أن يقتل الفن نفسه، وكاتبنا لم يتحلل فيما كتب من هذه القيود. وإنما أعنى تلك الحرية التي يحقق بها الكاتب ذاته في أجلى وأقوى صورة. وفى الأجزاء الأولى من الكتاب نحس أن الكاتب لم يحقق هذه الصورة لذاته على النحو المنشود، فنحن لا نحس به أقوى من عبارته وفوقها. وكمال حرية الكاتب لا يتحقق – في ظني – إلا عندما نحس أنه أقوى مما يقول وفوق ما يقول. فإذا نقصت هذه الحرية أو عاقها أي عائق لجأ الكاتب إلى حيلة مشروعة – أدبيا – للتعويض، وهى أن يحشد للتعبير كل قوة جمالية شكلية من شأنها أن تحدث في القارئ تأثيرا جماليا مرضيا، وإن كان هذا التأثير الجمالي وقتيا في

أغلب الأحيان. ومن هنا كان جمال العبارة في الأجزاء الأولى من الكتاب فوق العبارة وفوق المؤلف نفسه. وأسوق مثالا على هذا القطعة التالية:

بينما أنا ماض في ألعابي الخطرة يا أيتها العابرة.

لمحتك تعجبين، ولمحتك تجفلين، ولمحتك تهربين،

لكن شيئا واحدا لم تستطيعيه،

كنت أريدك مثلي تلعبين ومعي تشتركين، عساي أعجب أو أجفل أو أهرب كما تفعلين.

لكنك اكتفيت بأن تعجبي بألعابي كبقية المتفرجين،

حين اقتربت منك في دورة خطرة فلمحتك تجفلين،

فتظاهرت بجذبك معي داخل الحلقة لألمحك تهربين.

متمتعا بمرآك، مضحكا معي نظارتي المنتشين الخائفين،

وأنا ماض في ألعابي الخطرة يأيتها العابرة،

معرضا نفسي لهرب المعجبين.

فلاشك أننا نتأثر بهذه القطعة حين نستمع إليها، لما فيها من هندسة وتلوين موسيقي ولكنها لا تهزنا من أعماقنا. والسبب- في ظني – هو أننا لا نواجه فيها ذات الكاتب في

كامل عنفوانها. وإنما نواجه فيها التعبير في أجمل أشكاله، وهذا يعنى – ضمنا – أن التعبير فيها ينقصه عنصر الحرية.

ولست أدعي أن هذه القطعة ومثيلاتها في أجزاء الكتاب الأولى مجرد عبارات وزخارف لفظية أنيقة، فالذي لاشك فيه أنها تحمل بعض المشاعر، ولكن – وهذا يجرنا إلى الحديث عن صفة أخرى من صفات هذه المقطوعات – ما مدى هذه المشاعر؟ ما أبعدها؟ ما أعماقها؟ من الواضح أنها مشاعر بسيطة وسطحية وجزئية، ليس فيها تعقيد أو عمق أو نظرة كلية شاملة. وأنا أعترف بأننا نهتز للمحة الشعورية التي تتسم بالبساطة، لكن مثل هذه اللمحة تخفي وراءها في الغالب ذاتا حرة تستمد منها هذه البساطة قوة سحرية هائلة. ومن ثم كانت البساطة المعجزة لدى بعض كبار الفنانين.

فإذا لم تكن بساطة المشاعر في هذه القطعة ومثيلاتها تمثل هذا النوع الآسر من البساطة فإن هذا يرجع إلى أنها البساطة ذات الأبعاد القريبة، أي البساطة التي لا تنم عن الامتلاك بالتجربة الكلية ذات الأبعاد الكثيرة التي تنعكس من خلال منشور عقل الكاتب وحسه في شعاع واحد بسيط وشفاف.

ثم إن العمل الفني ليس مجرد مشاعر وتعبير جميل عن هذه المشاعر، فإننا نزن المشاعر دائما بما لها من أبعاد.واتساع نطاق المشاعر رهن دائما باتساع نطاق التجربة، ومن أكثر العوامل فعالية في خصب التجربة واتساع نطاقها " الثقافة ".وهذه المقطوعات الأولى من الكتاب تنم عن أنها كتبت في مرحلة مبكرة من حياة الكاتب لم يكن فيها قد حصل وتمثل وهضم القدر الكافي من الثقافة. ومن أجل ذلك كانت التجربة فيها محدودة، وكانت المشاعر – نتيجة لذلك – بسيطة.

إن الكاتب في هذه المقطوعات لم يكن بالتأكيد قد استكشف ذاته بعد، بل لعله لم يكن قد تنبه لضرورة بحثه عن ذاته والتعرف عليها. ولا غرو بعد هذا أن نجد الكاتب فاقدا لحريته فيما يكتب، وأن نجد رصيده من التجربة ضئيلا، ومشاعره سطحية وبسيطة.

وفى الكلمة التي قدم بها الكاتب لكتابه يحدثنا عن تردده في نشر هذا الكتاب لما رآه من طغيان الاتجاه الواقعي في كتاباتنا، وأنه وجد الشجاعة عندما ترجم جبران للجيل الجديد من قراء العربية، وعندما ظهرت أخوات لمؤلفات جبران

فأضيء أمامه " الطريق من جديد إلى حيث الاحتفاء بنقاوة اللفظ، وصفاء التعبير، ورهافة المعنى، وشفافية الأسلوب".

ولا أحب أن أتعرض الآن لأثر الاتجاه الواقعي في اللفظ والتعبير والمعنى والأسلوب، وإنما أتساءل: إذا كنا نعد جبران رومنتيكيا أيمكننا أن نحدد الرومنتيكية عندئذ بنقاوة اللفظ وصفاء التعبير ورهافة المعنى وشفافية الأسلوب؟ المؤكد أن أحدا لا يقرنا على ذلك، حتى المؤلف نفسه. وقد اعترفت - وأعترف مرة أخرى – بأن هذه الصفات الأسلوبية متوافرة لكتابنا الذي نناقشه لكنها وحدها لا تجعل منه عملا أدبيا رومنتيكيا، إلا إذا تحدثنا – وهذا الكلام ينطبق على الأجزاء الأولى وحدها من الكتاب – عن رومنتيكية فترة المراهقة. وعندئذ يلوح لنا أن تردد الكاتب في نشر هذا الكتاب لم يكن بالتأكيد نتيجة لشدة وطأة الاتجاه الواقعي وخوفه من أن يخرج لحنه ناشزا بين الألحان الأخرى التي شارك هو نفسه فيها، وإنما لإحساسه الخفي أو الواضح بأن أجزاء من هذا الكتاب – هي الأجزاء التي نتحدث عنها الآن – تكشف للقارئ عن مرحلة المراهقة الرومنتيكة التي مر بها ويمر بها كل إنسان. وكثيرون منا يملكون في أدراج مكاتبهم

أشياء كتبوها في هذه الفترة من حياتهم كالتي نشرها الصديق الشاروني. ومن هنا لا يصح لنا أن نطلق على هذا الكتاب صفة الرومانتيكية إلا إذا حددنا الرومنتيكية بفترة المراهقة، وهى بعد رومنتيكية ضحلة هزيلة.

على أن هذه الرومنتيكية الهزيلة قد أسلمت الكاتب فيما بعد إلى رومنتيكية خصبة تنم عن تحرر الكاتب من حدود إطار ذاته المغلقة وانطلاقه إلى الخارج واحتكاكه بالطبيعة فظهرت عنده النزوات الروحية التي تسبق سن النضوج الفكري – ولا أقول العقلي – في بعض المقطوعات (انظر ص ٦٠ من الكتاب على سبيل المثال)، كما ظهر عشق الكاتب للطبيعة وتفانيه في الكون وشعوره بوحدة هذا الكون (ص ٦٤)، كما أخذت بعض المشكلات الميتافيزيقية تشغل روحه، كمشكلات الموت والعدم (ص ٨٣) والخلق والإبداع (ص ٩٢)، ثم تطور به هذا إلى نوع من التفلسف في بعض القضايا الإنسانية، وكانت قضية الألم واللذة هي أبرز هذه القضايا التي فلسفها (ص٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣).

وقد نمت المقطوعات التي تعبر عن هذه القضايا والمشكلات على أن كاتبنا كان قد أخذ يمارس تجربة الحياة

ممارسة عقلية، ساعدته عليها دراسته للفلسفة في كلية الآداب واحتكار عقله بالفلسفات القديمة والحديثة، بالإضافة إلى نظرات جزئية شخصية إلى الحياة. وكانت هذه المقطوعات بمثابة المعبر الذي انتقل خلاله الكاتب من رومنتيكيته الأولية إلى الإحساس بضرورة تحرير هذه الذات. وعند ذاك برزت بالضرورة مشكلة التعبير، وكان إحساس الكاتب بها بداية لمرحلة التعبير الفني الحقيقي. فقد أدرك عند ذاك أن ما كان يكتبه من قبل، وإن توافرت له نقاوة اللفظ ورهافة المعنى وشفافية الأسلوب، لم يكن عملا فنيا حقيقيا، وإنه لكي ينتج عملا فنيا بحق يتحتم عليه أن يجعل رصيده من التجربة أكبر من التعبير وفوق التعبير.

ومن هنا كانت المجموعة الأخيرة من مقطوعات الكتاب تختلف في طابعها – كما قلنا من قبل – اختلافا كليا عن المجموعة الأولى، ففي هذه المجموعة الأخيرة نشعر بالكاتب قد حرر ذاته وحرر تعبيره، أو نشعر به – على الأقل – يحاول ذلك.

وأسوق هنا مثالا من الكتاب أوضح من خلاله ما أعني. ففي الأجزاء الأولى من الكتاب يقول الكاتب في المقطوعة الثالثة من الجزء الأول:

" إذا كان وصولك إلى قصر حبيبتك ذات مساء،

ورأيت جمهورا من المزدحمين يتضاربون فراعك الزحام،

لا تحسب أنك تأخرت، بل هدئ روعك ثم اخترق طريقك بين المحتشدين،

وإذا أخفقت فلا تيأس بل حاول من جديد،

وإلا فإن الليل سيقبل وأنت لا تزال خارج أبوابها،

فإذا ما أقبل الليل وأقفلت أبوابها وأنت لا تزال في العراء،

وتفرق جمهور المزدحمين ورأيت نفسك وحيدا مع نجوم تشخص إليك،

لا تحسب أن الوقت مضى، بل هدئ روعك،

ثم تسلق هذه الشجرة التي تقبل نافذتها،

فربما انعكس ضوء غرفتها عليك فرأتك ذات لحظة.

وإلا فإن الليل سيوغل وأنت لا تزال بعيدا عن نور أجفانها.

فإذا ما أوغل الليل وأطفأت أنوارها وأنت لا تزال في الظلام،

وصمت النسيم وضمت الطيور أجنحتها، وهربت الحياة على أطراف أقدامها،

فاعلم أن الوقت أزف، استجمع قوتك، ثم أمسك نايك وأنفخ فيه كل رغائبك،

إنها ستسمعك في هذا الصمت عندما تذوب أغنيتك في حلم من أحلامها الذهبية... الخ.

هذه المقطوعة تحمل خصائص التعبير الجميل من غير شك، ولكنها أكبر مما فيها من حصيلة شعورية، وأكبر من الكاتب نفسه. فإذا ما قلبنا صفحات الكتاب ووصلنا إلى الصفحة ١٠٢ – أي إلى الجزء الثاني من الكتاب – قرأنا قول المؤلف:

" لكم من مرة نأمل في آخر أن يحمل عنا آلامنا، فعدنا من عنده ونحن أكثر تألما، ومع ذلك فنحن نتناسى ونلقي بأنفسنا مرة أخرى، فالشبكة لن تخرج فارغة على أية حال ".

وبشيء يسير من النظر يتضح لنا أن القطعتين تتحدثان عن تجربة واحدة أو – على الأقل – متشابهة، ومع ذلك لا يخطئ أحد منا أن يدرك أن القطعة الأخيرة أبلغ تأثيرا من الأولى. فإذا بحثنا عن السبب في ذلك تبين لنا أن المؤلف في القطعة الأولى كان ملكا للتجربة، في حين كانت التجربة في القطعة الثانية ملكا له. وقد نجح الكاتب في أن يشعرنا بأنه أكبر منها، وأنها ليست إلا الخلفية الكامنة وراء الحقيقة الوجودية التي انتهى إليها. ويؤكد هذا. ويتأكد به كذلك – حقيقة أن العمل الفني ليس رصدا للتجربة وإنما هو الحكم أو الحقيقة التي ننتهي إليها من خلال التجربة.

ولعلنا قد لاحظنا أن العبارة في القطعة الثانية لم تثقل كاهلها أناقة الأسلوب كما هو الحال في القطعة الأولى. وهذا شيء طبيعي، فالأناقة هناك كانت ضرورية لتعويض حرية التعبير لدى الكاتب، أما في القطعة الثانية فإن انطلاق ذات الكاتب وامتلاكه للتجربة قد ساعدا على تحرير الأسلوب من كل الزخارف والزينات الجمالية، ومع ذلك – أو قل من أجل ذلك – نحس في القطعة الثانية بقوة لا نحس بها في القطعة الأولى.

وقد كان في نيتي ألا أصدر أحكاما على هذين الطرازين من الكتابة، ولكن يبدو أنه من الصعب تجنب الحكم في أي دراسة نقدية. ولذلك أقول في صراحة أن الأجزاء الأخيرة من الكتاب هي – في رأيي – الأجزاء التي تحمل قيمة أدبية حقيقية، وهى الأجزاء التي تهزنا هزا عنيفا حين نقرأ الكتاب، وهى التي تبقى أجزاء منها تدور في أدمغتنا بعد أن نفرغ من قراءته.

وقد قلت في البداية إن هذا الكتاب تجسيم لمشكلة "الفنان وأزمة التعبير"، وأود الآن أن أزيد هذه الدعوى وضوحا، مستفيدا من هذا العرض التحليلي للكتاب، فالكتاب في الأجزاء الأولى منه لم يكن يعاني مشكلة التعبير على الإطلاق، لأنه لم يكن على وعى بها بل ربما خيل إليه آنذاك أنه ملك ناصية الكتابة بما توافر له من قدرة على صياغة العبارة الرشيقة المنمقة، لكنه حين وجد ذاته من خلال احتكاكه الحقيقي بالحياة وتحصيله قدرا وافرا من الثقافة، أدرك أن ما يكتبه – أو ما كان يكتبه – لا يرقى إلى مستوى ذاته، وبرز أمامه التعارض الحاد بين ذاته الحرة وتعبيره المقيد، وعند ذاك أدرك أن التعبير شيء خطير، بل لعله

أوجس منه خيفة (ص ١٣٣)، واتضحت أمامه الضرورة التي تصنع الفنان بحق، وهى أن تكون له رسالة في الحياة يسعى إلى تحقيقها. على أن تحديد هذه الرسالة هو أشق ما يواجهه الفنان، وهو لذلك يظل ضالا في فترة ضياع قد نستمع منه فيها إلى صرخات كصرخات فاوست عند جوته (انظر ص ١٤٧/١٤٦)، ينشد فيها الحقيقة لكي يجعلها رسالته وغايته في الحياة. وعند ذاك تبلغ أزمة التعبير حدتها، ولا تخف إلا عندما يستكشف الفنان ذاته ويعرف غايته ورسالته. وقد اجتاز الأستاذ الشاروني من غير شك هذه المحنة، ولكنه في الوقت نفسه قد صورها لنا في كتابه "المساء الأخير" تصويرا صادقا ومثيرا، لأنه مستمد مباشرة من واقع التجربة وفى زمانها، من حقنا أن نغبطه عليه.

مجلة الثقافة العدد ١٢ - ١٩٦٣/١٠/٨

المساء الأخير

بقلم

لويس عوض

وهذا كاتب آخر ينبش أوراقه القديمة ويجمعها في باقة مونقة ويسميها "المساء الأخير". وقد جرت العادة ألا يجمع أديب أوراقه القديمة إلا حين تدركه الشيخوخة ويقرر اعتزال القلم ولكن يوسف الشارونى فاجأنا بجمع أوراق شبابه الباكر وهو ما يزال دون الأربعين ولا أحسب يوسف الشاروني قد قرر اعتزال القلم وهو في مطلع رجولته الناضجة، فما أرى شيئا يدعوه إلى ذلك وما أرى إلا أن يوسف الشاروني رغم أنه قصاص مقل شحيح الإنتاج، قد استطاع في السنوات العشر الأخيرة أن ينتزع لنفسه مكانا مرموقا بين كتاب القصة العربية القصيرة.

لا أغالي إن قلت أنه في المقدمة التي لا شبهة فيها بفضل أسلوبه المتقن الفريد وبفضل عنايته الفائقة بصقل الكلام وبصقل المعاني.

وربما بفضل ذلك التزييف المحكم للفظ والفكرة الذي بلغ من الأحكام أنك لا تستطيع أن تميز فيه الماس الطبيعي من الماس المصنوع من الفحم في الأفران.

فالأرجح إذن أن يوسف الشاروني حين يجمع وهو في الأربعين أوراقه التي كتبها وهو في العشرين، إنما يريد أن يعلن شيئا أو أن يحتج على شيء أو أن يتخذ موقفا من الأشياء التي تجرى من حوله في عالم الأدب، كل هذا بطريقته الهادئة التي لا جلبة فيها ولا صياح ولا نداء، وأعتقد أنه قد نجح في هذا لأنه لم يقدم إلينا باقة زرية أو باقة من خسيس الزهور التي تخدش العين ألوانها أو تؤذي الأنف روائحها السقيمة بل قدم لنا باقة ناضرة ذكية العطر رقيقة الألوان رف عليها ظل الصباح وندى المساء.

هذا الذي يريده يوسف الشاروني أن يعلنه نجده يقوله باختصار في خمس كلمات في مقدمه ديوانه "المساء الأخير" فالمساء الأخير ديوان من الشعر المنثور حيث يقول: "كنت كلما هممت بجمع (مسائي الأخير) بين دفتي كتاب ترددت وتهيبت فقد كنت أشهد كيف يطل علينا تيار الواقعية –مؤلفين وقراء ويكتسح ما عداه. فانزوى – فيما انزوى – مسائي

الأخير ". ومن هذا نفهم بوضوح أن يوسف الشاروني يحتج صراحة على مد الواقعية الذي اجتاح حياتنا الأدبية سنوات وسنوات فانزوى أسس الإبداع الرومانسي وانكمش وانطوى على نفسه، وهو يحتج على أن الخيال فر أمام الواقع واحتمى منه في كهوف وغيران لا يعرف لها أحد مكانا. ولكنه في الوقت نفسه يريد أن يقول: لقد آن الأوان للخيال أن ينطلق وللوجدان الرومانسي أن يخرج من كهوفه وغيرانه، فالفرصة الآن مواتية بعد انحسار تيار الواقعية الذي عرفته حياتنا الأدبية في السنوات الأربع الماضية.

ولأن يوسف الشاروني كاتب متردد حذر، ولأنه يقف مترددا حذرا أمام الحياة كما يقف مترددا حذرا أمام ألفاظه الجميلة وأفكاره الجميلة، فهو قد صبر وصبر حتى ظهر غيره ليشق أمامه الطريق ويتحمل مسئوليات الاحتجاج الأول على طغيان الواقع على الخيال. وهو يصف هذا بقوله: "ثم أقبل الدكتور ثروت عكاشة على ترجمة جبران، ليبعثه أمام جيل جديد من قراء العربية، وكان قد كاد يصبح مجرد علامة في تاريخ أدبنا العربي، وما لبث أن ظهرت في سوقنا العربية أخوات لمؤلفات جبران. وهكذا أضيء الطريق من

جديد إلى حيث الاحتفاء بنقاوة اللفظ وصفاء التعبير، ورهافة المعنى وشفافية الأسلوب. عندئذ وجدت أن (مسائي الأخير) قد آب من غربته، وعثر على صحبته، وآن لأشلائه المبعثرة – كأشلاء أوزيريس – أن تجمع في كتيب من جديد".

أما هؤلاء الأخوات اللائي ظهرن بعد أن أقدم ثروت عكاشة على إطلاق سراح الخيال السجين بترجماته. وهذه هي " الصحبة " التي عثر عليها يوسف الشاروني في طريق الرومانسية فتشجع على المسير. فيوسف الشارونى إذن يعرف أنه جزء من حركة أشمل منه هي تلك الحركة التي سبق لي أن وصفتها بأنها حركة إحياء رومانسي ازدهر على أنقاض المدرسة الواقعية التي انتكست حول عام ١٩٦٠ أو قبل ذلك بقليل.

وظهور " المساء الأخير " ليوسف الشاروني ينبغي إذن أن يؤخذ، لا على أنه وليد المصادفة، ولكن على أنه جزء من حركة أشمل منه تجري الآن في حياتنا الأدبية وهى حركة الإحياء الرومانسي، بل إن عبارات يوسف الشاروني ذات مغزى صريح، فهو حين يتحدث عن ثروت عكاشة يقول أنه بعث جبران بعد انطوائه، وهو حين يتحدث عن " مسائه

الأخير " لا يجد وصفا يصف به جمع أوراقه الدفينة المبعثرة إلا أنها كأشلاء أوزيريس المبعثرة التي جمعت ليتم بعث هذا الإله الميت الممزق الأشلاء.

فهو إذن يتخذ من أسطورة البعث الأولى رمزا لبعث الرومانسية المصرية بعد طول موات.

ولو أن يوسف الشاروني كان مشتغلا بالنقد لما وجد داعيا لكل هذا التردد الطويل قبل نشر ديوانه هذا، ولما ثبت بصره فقط على جبرانيات ثروت عكاشة أو على أعمال حسين عفيف وبشر فارس. لو أنه كان مشتغلا بالرصد والنقد للاحظ أن هذه اليقظة الرومانسية ليست مقصورة على الشعر المنثور وإنما تكاد تمس كل قطاع من قطاعات أدبنا الحديث في السنوات الأخيرة بدرجات متفاوتة ولكنها واضحة في الوقت نفسه. واقرأ معالم هذا الازدهار الرومانسي في ازدهار شعر صلاح عبد الصبور وفى ازدهار شعر احمد حجازي، بل اقرأ معالمه في ذلك الجيشان الرومانسي الذي تجلى في قصص نجيب محفوظ الأخيرة رغم عجز نجيب محفوظ عن التخلص من الإطار الكلاسيكي الذي فرضه على أدبه بحكم حاسته المعمارية المتطرفة. بل أكاد أقطع أنه

تجلى أيضا في قصص يوسف إدريس الأخيرة ولا سيما منذ " حادثة شرف " و العسكري الأسود " وفى مسرحه إلى حد كبير. بل يتجلى في قصص مصطفى محمود وفى محاولات الجيل الجديد من كتاب القصة من أمثال عبد الله الطوخي وصالح مرسى. بل أكثر من هذا، فهو يتجلى في طائفة كثيرة من المسرحيات العربية التي رأتها القاهرة في السنوات الأخيرة، تلك المسرحيات التي تسمى رسميا بكوميديات وهى في حقيقة الأمر تراجيديات مقلوبة كمأساة الطواف لنعمان عاشور ومأساة الكوم الأخضر لسعد الدين وهبة ومأساة العمى الإصلاحي للطفي الخولي ومأساة المثقف ليوسف إدريس. ومأساة المجاهد الضائع لمحمود السعدني، وهى كلها تراجيديات خشى أصحابها تحمل مسئولية التراجيديا فألبسوها ثوب الكوميديا الدامعة.

هناك إذن زحف رومانسي تشهده حياتنا الأدبية في السنوات الأخيرة، بعضه مستتر وبعضه صريح وبعضه مختلط لا تعرف بعضه من بعضه الآخر، ولكنه لم يخرج إلى العلانية السافرة إلا في جبرانيات ثروت عكاشة وفى

"أرغن" حسين عفيف وفى " جبهة الغيب " لبشر فارس، وأخيرا في " المساء الأخير " ليوسف الشاروني.

والحق أن المستقبل وحده هو الذي سيثبت لنا إن كان هذا البعث الرومانسي مجرد انتفاضة عابرة أم أننا مقبلون على مد رومانسي عظيم. أقول هذا في احتياط شديد لأنه حيثما ظهرت هذه الرومانسية صريحة بغير قناع كما هي الحال في جبرانيات ثروت عكاشة وفى أعمال بشر فارس وحسين عفيف ويوسف الشارونى الأخير، فهي لا تتخذ صورة الانطلاق الرومانسي الجديد وإنما اتخذت صورة نبش لصفحات منطوية فترجمة جبران وجمع أشلاء " المساء الأخير " بعد رقدة عشرين عاما وكل ما شابه ذلك لا تتجاوز أن تكون خروجا لأشباح الماضي من قبورها إلا إذا اقترنت بانطلاق إبداع رومانسي جديد، أو هي لا تتجاوز أن تكون خمرا قديمة في زجاجات جديدة كما يقول الأوربيون، حتى حسين عفيف وبشر فارس لم يفعلا أكثر من التعبير عن حساسيات رومانسية بأسلوب رومانسي أو رمزي تميزا به منذ ربع قرن، فهما بمثابة القائل: هكذا كنا نحس أو هكذا كانت الناس تحس منذ ربع قرن أو يزيد. أما يوسف

الشارونى فما قدم لنا صراحة إلا خمرا قديمة في زجاجات قديمة ولسان حاله لا يقول " هكذا " كنت أغنى منذ عشرين عاما، بل يقول "هذا" ما غنيته منذ عشرين عاما. فإذا لم يقترن إطلاق أشباح الماضي عما قريب بظهور مدرسة رومانسية خالقة جديدة لا تعبر عن حساسية الثلاثينات ولكن تعبر عن حساسية الستينات من هذا القرن، فإني أخشى أن تكون هذه الإرهاصات الرومانسية مجرد فقاقيع لا تلبث حتى تذهب هباء كالزبد المأثور فلا تخصب شيئا في أدبنا ولا تعمق مجرى الحياة.

والحق أيضا أن من أصعب الأمور التكهن بمصير هذا الإحياء الرومانسي نظرا لتعقد عناصر حياتنا الجديدة وتعقد إمكانيات الرومانسية فيها. فتاريخ الآداب العالمية لم يعرف الازدهار الرومانسي في الفن والأدب إلا تعبيرا عن حالتين لا ثالث لهما: تعبيرا عن ثورة المثال على الواقع وعن ثورة الروح على المادة وعن ثورة الحرية على القيد وهذا هو الوجه الخصب الخلاق في كل انطلاق رومانسي، ثم تعبيرا عن الانسحاب المهزوم أمام الحياة في أبراج العاج وفى قوقعة الأحلام. والمستقبل وحده هو الذي سيدلنا إن كان ما

نراه حولنا من إحياء رومانسي تعبيرا عن القلق الخصب الخلاق أم انسحابا حزينا إلى كهوف النفس وغيران الذات.

أما تجربة يوسف الشاروني " المساء الأخير " فهي تجربة من ثلاث مراحل يمكن أن نسميها تجربة العاشق وتجربة الفنان وتجربة الصوفي. أما تجربة العاشق فيقول فيها أشياء من هذه الأشياء:

" عندما لمحتها من شرفة قصرها،

ذهبت واشتريت بكل ثروتي عقدا يتلألأ كالدموع،

ثم عدت أقدمه لها عساني أملك فرحة قبوله،

لكن كانت ثمة جوهرة لم أتنبه إليها منطفئ لونها قليلا

فأهانتني وأغلقت بابها في وجهي، فقررت انتقامي.

وفى المساء تسللت إلى قصرها المنيع،

وهناك مررت بها نائمة فقبلتها هامسا: أحبك،

ثم جعلت أسرق كنوزها ما بين براقة كالأمل أو ثقيلة كالحزن،

ونظمتها مع لآلئ عقدي بقية الليل في خيط لونه قان،

وفى الصباح بعثرت ما نظمته على فقراء مدينتها، فأتممت انتقامي ".

أما تجربة الصوفي فيقول فيها مناجيا الله:

" أحبك أحبك، أكثر من الحياة

أحبك في دموع الليل

وفى النسيم الضاحك مع الصباح،

أحبك عند المعابر المزدحمة، وفى ظلال الزوايا المتألقة بالهجران،

فوق التلال، في أعماق اليم، بين الأقاحي على الصخور.. أحبك.

أحبك حتى الاشتعال وحتى الأبد، حتى أجزع وحتى الموت، وإلى الجنون يا حبيبي أحبك.

أحبك وضباب الخريف يخفيك عنى.

حين تشرق في جلال مجدك

سأنتفض صارخا:

أني أحبك، أحبك، أحبك، أعمق من الصمت ومن الحب أحبك ".

أما تجربة الفنان فيقول فيها:

"عندما أقبل الهزيع الرابع كنت قد أتممت صورتها متألقة كآمالها، مشتعلة كحنينها، ورقيقة كحنانها. وبغير ما انتظار للفجر ذهبت في لهفة أعدو نحو دارها، وفى برودة

السحر أيقظتها وأنا أطرق بابها فقامت وفتحت لي قليلا تتطلع إلى هذا الغريب الذي سيزاحمها وحدتها.

" ومن فرجة الباب رأيتها متلفعة ثوبها الليلي، فقدمت إليها اللوحة في فرح وأنا أهمس : تلك صورتك يا سيدتي. فاختلجت شفتاها بابتسامة حزينة وهى تأخذها. وتطلعت في انتظار وقلق وأنا أراها تتأملها كأنما في دهشة بينما كان عطرها المختلط ببرودة السحر يغمرني، مع أنها ما عرفتني.

"ومن فرجة الباب أعطتني ما أعطيت وعيناها المغرورقتان تهمسان: لقد أخطأت المكان، ليست صورتي يا سيدي، فرجعت أتعثر في خجل وأنا أسمع تنهدات خلف بابها المردود. ورحت أشرد في الطرقات أتأمل في حيرة صورتها على ضوء السحر واثقا أنى لم أخطئ المكان.

حتى إذا ما انبثق الفجر رأيتني أتأمل صورتي "!

وقد أوردت هذه النماذج الثلاثة من الشاعر عاشقا والشاعر فنانا والشاعر صوفيا لما بينهما من وحده عميقة

وجميلة، وحدة لا سبيل إلى فصمها فهي تلتقي جميعا على مبدأ واحد هو مبدأ "الشاعر المرفوض"، وهو جوهر رومانسي أصيل. أما العاشق المرفوض، فحين ترفضه سيدة القصر المنيع فهو ينتقم منها بمزيد من العشق، أو بتعبير يوسف الشاروني هو يوزع كنوزها مع كنوزه على فقراء مدينتها، فبعد أن كان ينظم من دموعه الآلئ لها وحدها، تعلم كيف ينظم من مفاتنها قلائد من القريض يبعثرها بين الأحياء. وأما الفنان المرفوض هو يرتد كذلك إلى نفسه بعد أن أدرك أنه ما رسم صورة الحياة وإنما رسم صورة نفسه. وأما الصوفي المرفوض فهو يملأ الدنيا ضجيجا بإعلان حبه لله. فلو أن الله قبل حبه لكانت نجواه لله همسا وضراعته نجوى. وهو في هذه الأحوال يطلعنا في حياء على سر هذا الرفض الخطير بقوله أن " الجوهرة المنطفئة " هي الظل الذي حال بينه وبين الحبيبة عاشقا وأن " صورة الأنا " هي الظل الذي حال بينه وبين الحياة فنانا، وأن "ضباب الخريف" هو الظل الذي حال بينه وبين الله صوفيا ولكننا لا نعرف على وجه اليقين إن كان هذا النقص الذي يكسر دورة الوحدة التامة عند يوسف الشاروني هو ذلك الحائل الفظيع من

حواس الإنسان الذي يمنع الشفافية والامتزاج النوراني أم هو ذلك الحائل الفظيع من العقل الإنساني الذي ينثر ضبابا منطقيا يحجب الرؤية الصادقة والتواصل الكامل، وهما لا يدركان بغير الروح.

الملحق الأدبي بصحيفة الأهرام،
القاهرة، أول نوفمبر ١٩٦٣
ثم نشر في كتاب: دراسات عربية
وغربية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥

المساء الأخير

بقلم

فاروق منيب

لا أعتقد فيما يبشر به الدكتور لويس عوض من أن تيار الرومانسية عاد إلى أدبنا بعد فترة احتجاب طويلة، وأن هناك حركة بعث لهذه المدرسة على يد أدباء من أمثال الأساتذة.. حسين عفيف، ثروت عكاشة، يوسف الشاروني. إن ما نراه من إنتاج هؤلاء الأدباء سواء كان مترجما أو مؤلفا إنما يمثل الفترة الأولى في أعمارهم الأدبية. ونحن نرحب بهذه الأعمال، لا على أنها تمثل حركة بعث للمدرسة الرومانسية في أدبنا، وإنما لأنها تكشف لنا المسار الفني الذي سلكه هؤلاء الأدباء.

إنني حين أقرأ " المساء الأخير " للأستاذ يوسف الشاروني أدرك مراحل تطور الكاتب، وخصائص أسلوبه القصصي الذي نلاحظه في قصصه. فهناك عناية زائدة بالصياغة القصصية، وإحساس خاص باللفظ، بل وجهد ملحوظ في تكنيك القصص الفني، وفى الحق أن الكاتب الذي

يستوعب أساليب المدارس التي تسبق المدرسة التي يجب الاستقرار على شطآنها، إنما يعطيه ذلك الفرصة المواتية حتى يستفيد من تلك المدارس ومميزاتها الفنية. ويجب أن نعرف أولا أننا حين نكتب قصة مثلا، إنما نكتب بجملة عربية، أيا كانت تحويراتنا لهذه الجملة من الناحية الفنية.

وإذا كان الأستاذ يوسف الشارونى قد قدم " المساء الأخيرة" بقوله: إنه احتجزه في مكتبه زمنا طويلا، ثم آن له أن يرى النور حيث أضيء الطريق من جديد إلى حيث الاحتفاء بنقاوة اللفظ، وصفاء التعبير، ورهافة المعنى وشفافية الأسلوب.. أقول إذا كان الشاروني نفسه يقدم كتابه بهذه المعاني، فإننا من خلاله نستطيع أن نتصور أبعادا أخرى لا تكمن في طلاوة الأسلوب أو رشاقته، ولا التأملات الحزينة التي ضمخت روحه فترة طويلة من حياته. إن المساء الأخير يشعرنا برحلة التعبير الشاقة التي قطعها يوسف الشاروني حتى وصل إلى مستواه الحاضر في القصة القصيرة والمقالة النقدية. وهذه التأملات والخواطر الهادئة بأسلوبها المرهف تعد باكورة إنتاج يوسف الشاروني الفنية. فهي رغم خلوها من الأفكار الفنية المحددة. إلا أنها تعكس

قلق الفنان وشقوته لأنه يبحث له عن طريق يسير فيه. الفنان هنا عميق الشعور بمسئوليته، لا يحب أن يكتب أي شيء. همه تلمس مسار روحه ووجدانه الإنساني الخصب، يبحث بعقله عن مسارب وتيارات يصب فيها أحاسيسه ومشاعره المتدفقة. وهذه سمة الكاتب المسئول الدقيق، أن تتضح رؤاه الأدبية في عقله ووجدانه، وأن يأرق بهذه الرؤى، ويشقى في سبيلها الأيام والشهور، بل والسنوات في بعض الأحيان. وتأمل هذه الكلمات التي سجلها الكاتب في عام ١٩٤٦:

" إنني خائف من التعبير. إنني خائف من العالم ومن نفسي. أريد أن أحصل على أكبر معرفة ممكنة من خلال التجارب التي خلفها لي الآخرون ومن خلال تجاربي، وهذه الرغبة هي التي تخيفني من العالم، و من نفسي".

وفى مكان آخر يقول " وأنا وقد وطنت نفسي على أن أشارك الإنسانية أقصى ما بلغته من معارف وعلوم، لأحس أنني أريد أن أستوعب كل شيء، وأن هذا الإحساس ليضنيني ولو أنني أجد لذة في كل اكتشاف جديد أحصل عليه، وفى كل منطقة بكر أجول منقبا عما اختبأ فيها من كنوز وجواهر.. ".

ويظل الفنان يعزف على هذا الوتر القلق الحزين، باحثا عن نفسه، مشفقا أن يخوض فيما لا يتأكد منه، فهو المشتاق إلى "رسالة في الحياة أركز عليها كل جوانب نشاطي، فينتهي عهد هذا التشتت، وتلك العربدة الروحية المجنونة، رسالة أدأب على تنميتها في صبر وجهد وإناة، وأسخر كل جوانب حياتي الأخرى في سبيلها، بهذا وحده أحس بوجودي". ولم يكن هذا البحث الشاق من جانب الفنان إلا نتيجة واعية بضرورة الثقافة في تكوين الفنان، وضرورة تجاربه وهو الذي كان قد قرأ الأعلام في الأدب والفن من أمثال تاجور وكيركجارد.

وفى لحظات أخرى يشعر الكاتب بأن سعادته ترتبط بسعادة الآخرين، فلا يمكن أن تتحقق سعادة قلبه إلا بسعادة قلوب الآخرين. وأن الفنان ليعفو بالتسامح المسيحي الذي يطبع وجهة نظره في كثير من أحكامه " إن كل فعل يحمل وثيقة تبريره وكل كراهية منا للآخرين إن هي إلا جهل وتكاسل وبلادة ".

ولعل أهم ما في " المساء الأخير " يخص منهج الشاروني الفني – الذي كان يشتاق إليه منذ زمن بعيد – تلك السطور التي يتحدث فيها عن أدوات الفنان.

"إن الفنان يقترب من وضع قريب من الجنون، لأنه بطبيعته لابد أن يفكر وأن يتخيل وأن ينتج، فإذا لم تساعده أدواته على الانطلاق الذي يبغيه ويعلم ضرورته له فإنه يجد نفسه في آخر الأمر يدور حول نفسه. والكتب قد تعطيه الناحية الشكلية لتعبيره، لكن تجاربه هي التي تعطيه المادة والشخصيات".

ومن المهم أن نسجل هنا أيضا إرهاصات الكاتب الفكرية نحو المدرسة الفنية التي يود الانتماء إليها، فهو يقول تتمة لحديثه السابق: " فإذا لم تكن لديه القدرة على الانطلاق، فسيشبه عجلة ترام أو سيارة ظلت تدور حول نفسها بغير أن تدفع المركبة أو السيارة إلى المسير. ومهما كانت طبيعته من القوة فإنه لن ينتج لنا في النهاية أدبا واقعيا يلامس الحياة، بل سيخلق عالمه الخاص. ومهما كانت طبيعته من الغنى بحيث تستطيع أن تحيل ما يبدو للناس تافها إلى موضوعات حية خصبة، فإنه سيجد نفسه في آخر الأمر شديد الشوق إلى أن

يعيش تجارب جديدة، ويرى بلادا جديدة، ويتعرف إلى أفكار جديدة ".

إن اتجاه الكاتب الأدبي يبدأ من خلال هذه الأفكار الواضحة. فهو ما عاد يهيم في صحارى نفسه وصحارى الآخرين وما عاد يسعى في فجاج الأرض باحثا عن روحه ووجدانه. إنه أمسك ببداية الخيط وأصبح محدد الخطى، ثابت النظرة، وإن كان هذا لا يقل من تقدمه الدؤوب الطامح.

إن الوقت الذي قضيته مع " المساء الأخير " عرفني بيوسف الشاروني أكثر من ذي قبل، أعطاني بعض روحه الإنسانية في صباه المبكر، ونفسيته المحبة المتسامحة، وفى الدرجة الأولى جعلني أشعر بأنه لا يكتب إلا بعد تخطيط صارم يتبعه، وصقل طويل يصبر عليه.

المساء - الملحق ١٩٦٣/١١/٠٢

المساء الأخير

بقلم

الدكتور عادل سلامة

في الشهور الأخيرة من العام الماضي صدر هذا الكتاب ليوسف الشاروني وهو يختلف عن سابقيه "العشاق الخمسة"(١٩٥٦) و " رسالة إلى امرأة " (١٩٦٠) اختلافا جوهريا. فالكتابان الأخيران قد كتبا في فترة كان الكاتب قد بلغ فيها مرحلة النضج الفكري والفني معا – واستقر إلى القصة القصيرة أداة للتعبير. أما الكتاب الثالث – موضوع حديثنا في هذا المقال – فهو يضم كتابات يوسف الشاروني في فترة سابقة لمرحلة النضج كان ما يزال خلالها يتلمس طريقة في الأداء، ويحاول أن يشق لنفسه فلسفة معينة وموقفا من الأزمات الأزلية التي يكتنفها الغموض. وقد كتبت مادة هذا الكتاب في أوقات متفاوتة في أواخر الأربعينات من هذا القرن، ونشر أغلبها في أعداد مجلة الأديب فور كتابتها.وفي ذلك الوقت كان الكاتب حديث التخرج من قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، وكان ذهنه مشحونا – دون شك - بفلسفة كيركجورد وغيره ممن قرأهم خلال دراسته بالجامعة، كما

أنه كان قد قرأ أيضا طاغور، وت.س. إليوت ـ وتأثر بهما وبغيرهما تأثرا يبدو في بعض الأحيان واضحا كل الوضوح.

ويبدو شعار الكاتب جليا في التصدير القصير للكتاب، حيث يشير إلى أن بعث جبران خليل جبران في ترجمة الدكتور ثروت عكاشة أذن بأوبة " مسائي الأخير " من غفوته، وعثوره على صحبته: وآن لأشلائه المبعثرة – كأشلاء أوزيرس – أن تجمع في كتيب فيبعث من جديد ". وللمجاز هنا أكثر من مغزى. فالكتاب كما أوضح مؤلفه – ليس كلا متجانسا. فأجزاؤه تتفاوت بين الشعر المنثور، والنثر المنتظم، وبين السرد الذي يبلغ حد القصة، إلى الاقتضاب الذي يكاد يصبح كلمات مأثورة، وهناك أيضا طريقة المذكرات اليومية التي اتبعها الكاتب في آخر الكتاب. غير أن هناك رابطة هامة تربط بين هذه " الأشلاء المبعثرة"، إذ للكتاب محور واحد تدور حوله مادته، هو الشاعر نفسه شبيه أوزيريس الإله المعذب الذي فقد ذاته، وهو يحاول تحقيقها وإثباتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. والشاعر هنا في صراع مستمر مع الواقع. وهو يصر في عزم – رغم

الهزائم المتكررة – على أن يفرض نفسه وأخيلته على عامة الناس بغية السمو بهم. يقول الشاعر في إهداء الكتاب:

وهمست عيناك، غن لهم فهم مغتربون منهكون، وأنا في ظلالك أستريح،

ولحنا لم تطلبي لك، فقط أن استمر في غنائك للمغتربين فانحدرت مني دمعتان، واندفعت أغني في حماس للعابرين.

في القسم الأول من الكتاب يخطر الشاعر بين عامة الناس رجلا مسيحيا يترقب ، وقد التفت إحساساته حول نفسه وتركزت فيها وتجربته العاطفية تنتهي إلى هذه النتيجة:

حبنا لا يعرف الشواطئ، لا ولا يدرى الحدود

فحبنا ذواتنا هو حب للوجود، وحبنا الوجودهو حب للذوات.

فالتجربة العاطفية هنا تبدأ وتنتهي بالذات، وكأن العالم من حول الشاعر مرآة تنعكس فيها نفسه. فهو يدرى تماما أن خياله يهيئ له العالم بالصورة التي يبغيها هو، يدرك مثلا أن ناعسة تخطر في مشيتها، وتزين جرتها، وتنتشر على وجهها حمرة خفيفة عذبة، لا لأنها تحبه، بل لأنه يحبها.

أما مشكلة الشاعر الرئيسية في هذا القسم من الكتاب فتنحصر في موقفه من المجتمع، فالشاعر هنا لا يعاني فصاما ذاتيا، ولا بلبلة تؤدي به إلى التردد، وإنما هو واثق من نفسه تمام الثقة. بيد أنه لا يستطيع – مع ذلك، ومع عزمه الوطيد – أن يصل ما بينه وما بين المجتمع من حوله. ولهذه الأزمة شقان: شق يتعلق بتجربته الشخصية في الحب، وشق آخر يتناول علاقات الشاعر الاجتماعية بصفة عامة.

أما عن الشق الأول فهناك القصيدة الخامسة من هذا القسم. الشاعر يخاطب نفسه، إنه يريد الوصول إلى حبيبته سيدة القصر، وهى صعبة المنال. وهو يدفع عن نفسه اليأس في إصرار، إذا كان الليل قد أقبل، فلا بأس من أن يتسلق الشجرة المجاورة لغرفتها علها تراه، فإن لم تره فهناك الناي يستطيع أن ينفخ فيه علها ترق لأنغامه، ورغم إصرار الشاعر فإن تجربته تنتهي بالإخفاق والتجمد، فلا يتم الوصال:

إنها ستسمعك في هذا الصمت عندما تذوب أغنيتك في حلم من أحلامها الذهبية.

وإلا فإن الفجر سينتفض في الندى، وخفقاتك تجمدت لأنها لن تدفأ بخفقاتها بعد يا صديقي.

أما عن الشق الثاني الذي يتعلق بموقف الشاعر من المجتمع بصفة عامة، فإننا نجد إيضاحا لهذا الموقف في القصيدة السادسة. نفهم من هذه القصيدة أن لشخصية الشاعر جانبين، جانب يظهر للناس حين يضطرب معهم في حياتهم اليومية، وجانب لا يظهر إلا حين يغنى الشاعر ليلا في خلوته، فلا يطلع عليه إلا القلائل الساهرون الذين يصل الغناء إلى أسماعهم. والشاعر هنا لا يهمه أن عامة الناس منصرفون عن غنائه إلى النوم، فهو لم يقصد بهذا الغناء المنفرد إلا الإشباع الذاتي، وإلا الذين يبذلون الجهد من أجل تذوق الغناء:

وأنا أيضا أعلم، أعلم أنني لا أغني للناس إلا أردأ ألحاني،

فإذا عدت في الليل وحدي جلست أمام حديقتي أغني أفراحي و أحزاني،

وأعلم أن هؤلاء الذين يسهرون سيسمعون مني أروع الألحان حتى ترسل الشمس أول ابتساماتها.

في القسم الثاني من الكتاب – وهو يتكون من خمس عشرة قصيدة – ننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل تجربة الشاعر. فإذا كنا قد وجدناه في القسم الأول ماضيا في طريقه غير عابئ بالصدع القائم بينه وبين المجتمع من حوله، نجد محور شعوره في المرحلة الثانية هو تلك الصدمة التي يحسها بعد أن رفضه المجتمع. ويرمز الشاعر لهذا الرفض بانقطاع الوصال بينه وبين حبيبته. وهو يحس نتيجة لهذه القطيعة أن حياته أصبحت "عدوا مستديما وراء شمس غاسقة". ولكنه يحس أن حرقة القطيعة في ذاتها هي مصدر الوحي والإلهام:

فإذا حننت ذات يوم إلى مخدعك الذي طردتني منه،

لا تحسبيني سأعود لأعب من عينيك، فقد ذبلتا،

وسترين ملامحي تغيرت كثيرا، والبياض في شعر رأسي كسحابة الصيف.

وقد علمت أن تشردي الذي أمضيته مع الغسق يحييني دائما.

سأحاول أن أجفف جبهتي، وأمسح الدموع،

ثم أعطيك بعضا مما قطفت ورأيت وأنشدت،

فإذا لم تعرفيني سأعود حاملا ما رفضت لأجلس على منحنى الطريق،

مغنيا للمارة الغرباء أنشودة الغسق البهيج.

وفى القصيدة السابعة من هذا القسم نجد تعبيرا واضحا عن اتجاه الشاعر إلى " إعلاء" شعوره بالرفض والتنفيس عنه في الشعر الذي ينشره على الملأ من الناس، فهو قد اشترى بكل ثروته عقدا يتلألأ كي يهديه إليها، ولكنها ترفضه. عندئذ يقرر الانتقام، فتسلل ذات ليلة إلى مخدعها، ويقبلها هامسا " أحبك "، ثم يختلس كنوزها:

ونظمتها مع لآلئ عقدي بقية الليل في خيط لونه قان،

وفى الصباح بعثرت ما نظمته على فقراء مدينتها، فأتممت انتقامي.

***

فإذا انتقلنا إلى القسم الثالث من الكتاب وجدناه أكثر موضوعية لدخول العنصر القصصي فيه. في هذا القسم يحاول الشاعر أن يفلسف رفض الناس له، وأن يتقبله. في القصيدة السابعة من هذا القسم نلتقي بمثّال نصب أحد أعماله قريبا من أكبر الجسور، واختفى وراء بضع أشجار ليلحظ

إعجاب المارة بتمثاله. ولكن المارة على تباينهم لا يبالون ويمضون عبر الجسر. وككل مرة يساور الفنان الغضب فيهم بالعودة بعد انتزاع التمثال، ولكن تعزيه ابتسامة يقرؤها على شفتيه، وحين يزحف الظلام يهم الفنان بتحطيم التمثال، ولكنه ينتهي أخيرا بالانضمام إلى الجمهور الذي لا يبالي ويمضي في طريقه:

لكن التمثال لم يكن قد نام ولا ارتعش. ورأى الفنان الابتسامة الغنية قد أشرقت في خلودها. فقبله وهو يبكي، ثم تركه عريان في مكانه مع صمته الباسم. أما هو فقد عبر الجسر أيضا.

وتصل تجربة الشاعر إلى مرحلة التصوف في القسم الرابع من الكتاب، ويصل هذا التصوف في بعض الأحيان إلى نحو من الفناء في الإله:

أنت تعلم أننا فانون، فهب لي أن أحبك حتى يحويني الخلود

وأنت تعلم أننا ناقصون، فهب لي أن أحبك حتى يحويني الكمال.

أما القسمان الخامس والسادس فيعبر الشاعر فيهما عن غروب التجربة. وهو يرمز لهذا الغروب في القصيدة الأولى من القسم الخامس باختفاء الشمس وإقبال الظلمة:

"وعندما انطفأ كل شيء، علمت أن غروبها قد بلغ أوج روعته، وأن عمري في الظلام لا يمكن أن يكون مقياسه حياة النور والنهار بعد الآن ".

وهذا الغروب هو ما يسميه الشاعر " التقاء اللانهاية بالعدم "، لأنه لا يعنى انتهاء أو تغيرا " فما التغيرات في حياة الواحد منا إلا امتدادات لخطواته الأولى، فقط نحب أن نخدع أنفسنا بوهم البدء من جديد حتى نستطيع أن نواصل تحركنا بلا انقطاع ". ومن ثم فإن الشاعر يحاول في القصيدة الثانية من القسم الخامس أن يقفز القهقرى إلى الليل من موطن الشروق. وهو ينشد من رحلته الخلفية هذه أن يستعيد ذكرياته مع الحبيبة، ولكنه لا يستطيع أن يتبينها في خضم الأشباح الذي يتراءى له، فبدا له أن من الأفضل أن يفترض وجودها في هذا الجمع الهائل غير المستبين.

... حيث ينبثق الوجود من بين عدم وعدم... فاندفعت أريد اقتحام الموكب، حين أدركت أنني أحيا في الوهم، وأنني وحيد، والليل حولي، وقد ضاع مني الإحساس بالاتجاه...

فانطلقت أسير، بلا قامة ولا عمر، كي أواجه الليل أينما اتجهت.

***

ويحمل القسم السابع من الكتاب عنوان "لحن جنائزي"، والشاعر يشير بذلك إلى انقضاء التجربة وفراغه منها. ففي هذه المرحلة الأخيرة إذن يستطيع الشاعر أن يقف موقف الفيلسوف ذي الخبرة فيتحدث عما وراء التجربة. ففي القصيدة الأولى من هذا القسم يتحدث عن مشكلة "الخلق" في كلمات تذكرنا بقصيدة ت.س. إليوت. "الرجال الجوف":

بين الرغبة والتحقق يسقط الواقع، وبين الرغبة والمعرفة يقوم الخلق.

الخلق – كالحب – هو القمة التي عندها تتعانق الحرية المطلقة والضرورة المطلقة.

قارن ذلك بقول إليوت في القصيدة المذكورة:

بين الفكرة والحقيقة يسقط الظل، بين الحركة والفعل يسقط الظل.

لك الملك يا رب.

بين الإلهام والخلق يسقط الظل، بين الإخصاب والإنجاب يسقط الظل.

بين الأصل والفرع يسقط الظل، لك الملك يارب....الخ.

وكلا الشاعرين هنا يتناول فكرة الخلق، ويفرق بين لحظة الإلهام أو الإخصاب ولحظة الإبداع أو الإنجاب. وكما أن اليوت يتناول في قصيدته الجفاف والخواء الذي يصيب العالم، فإن الشاعر هنا يتطور من مناقشة فكرة الخلق إلى مناقشة فكرة الألم الذي يصحبه، ويكرس الجزء الأكبر من هذا القسم لاستكناه حقيقة هذا الألم، وكيفية الخلاص. وينتهي من هذه المناقشة بهذه النتيجة:

الألم نوعان. ألم نعانيه من أجل الفقد، يستمد وجوده من الماضي، ويكاد يكون دفاعا آليا عن النفس، مهما بلغ من الخصوبة والعنف فهو شكوى وتبرير واتهام، وألم نعانيه من أجل الحصول، يستمد وجوده دائما من اللحظة المقبلة وهذا الألم بذل إرادي من النفس، فهو جهد ولباقة وخلق.

ويفسر الشاعر هذا الألم في المذكرات اليومية الملحقة بالكتاب، يفسره بأنه ناجم عن الازدواج الوجودي الذي نعيش فيه فنحن متصلون روحيا بالمجهول، ولكن لنا وجودا واقعيا لا يعرف إلا الحسم والبتر، " ونحن نتعذب في هذه الأرجوحة الجهنمية ما بين اتصال في الروح لا يزال، وانفصال في الواقع بتار، من هنا تنبع آلامنا".

أما اليوميات في نهاية الكتاب، فالجزء الأول منها استمرار في مناقشة عملية الإبداع الفني باعتبار أنها ضرورة تلقائية لدى الفنان. ففي التعبير نحن نلخص كل فصول التجربة التي تلقيناها، وفى التعبير نقوم بمحاولة إيجابية ضخمة، ذلك أننا نحمل الآخرين على أن يعيشوا تجاربهم أيضا. ولكن كي يتم التعبير ينبغي أن تكون التجربة قد اتضحت في نفس الشاعر أولا. والمسألة ليست بالسهولة واليسر كما قد تتصور لأول وهلة. لأن عملية استبطان التجربة وإدراكها عملية شاقة عسيرة:

" إن حياتي كانت حتى الآن، وستكون حتى موتى، محاولة طويلة قاسية لتوضيحها، وأنني لأحس الليلة أنه ينبغي أن أبذل جهدا أكثر حتى تتضح لي نفسي أكثر وأن يتكشف

هذا العالم من حولي. إنني أحصل على كل حقيقة شعورية بعد معاناة ألم هائل، وأن أول خطوة أخطوها في صرامة وقوة نحو توضيح ذاتي، هو أنني يجب أن أحمل النير، وأن أتألم. تلك هي المقولة الأولى... "

كتاب " المساء الأخير " ليوسف الشاروني كتاب فريد إذن، لأنه ليس من نوع الأدب الذي تعوده القارئ العربي والذي يقاس نجاحه بمقدار ما فيه من واقعية. ينتمي هذا الكتاب إلى نوع من الأدب العقلي الرفيع الذي يتطلب من القارئ جهدا في الفهم مع التركيز والانتباه. ومن هنا كانت الأهمية الأولى لهذا الكتاب، إذ هو محاولة جزئية لانتشال الأدب الحديث من براثن الكسل الفكري الذي خيم عليه تارة تحت الواقعية، وتارة أخرى تحت اسم اللامعقول. والكتاب مهم أيضا كوثيقة تدرس فيها مرحلة من مراحل النضج الفكري ليوسف الشاروني، والدوامات النفسية والفلسفية التي اعترضته في فترة التكوين.

الآداب، بيروت، يوليو ١٩٦٤